الإنسان والشيطان

دكتور
فاروق أحمد دسوقي
أستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية المساعد
جامعة الملك سعود

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

الإنسان والشيطان

بحث من ثلاثة أجـزاء

١ ــ الانسان : خليفة بين بطانتين

٢ ــ شبهات ابليس السبع فى الفكر والادب

٣ ــ كشف مواضع التلبيس فى شبهات ابليس

دكتور فاروق دسوقي

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع ملشا ـ محرم بك ـ الاسكندرية

56
33
MN

مقـــــدمة

زعم الملاحدة والكفار أن الانسان يقف فى هذه الحياة على الارض وحده ، ضلوا وأضلوا • كيف يفسرون وجـــود الشر والظلم والعدوان اذن ؟• وكيف يعللون الافساد وسفك الدماء•

ان الانسان هو خليفة الله عز وجل فى الارض ، يقف بين بطانتين :

الاولى : بطانة خير وأولياء مخلصون له ، هم الملائكة ، جنود الرحمن الذين ينفـــذون مشيئته عز وجـــل فى الارض ، ويعملون بأمره تعالى لخير الانسان وسعادته فى الدنيا والآخرة

والثانية : بطانة سوء وشر وفساد ، الشـــيطان وجنوده وذريته ، أعداء الانسان فى كل زمان ومـــكان يزينون له الشر والمعصية والكفر بالله عز وجل ، ويدعونه الى شـــقاء الدنيـــا والآخـــــرة •

فالشيطان عدو الانسان ، ســـواء كان من الانس أم من الجن ، لا يريد شقاء الانسان فى الحياة الدنيا فقط ، بل يرمى الى تخليده فى نار جهنم ليشاركه مصيره الذى انتهى اليه يوم عصى ربه وأصر على معصيته •

هو الصراع اذن بين الانسان والشيطان منـذ آدم الى قيام الساعة .

والجمرات التى يرمى بها الحجاج ابليس اللعين أيام العيد تجعل العيد احتفالا اسـلاميا بالمغفـرة التى من الله بها على المسلمين : من حج منهم وحضر موقف عرفه العظيم ، ومن لم يحج منهم وصام هذا اليوم المشهود . ومن ثم حق للمسلمين أن يفرحوا وأن يحتفلوا بمغفرة ربهم عز وجل لهم ، وفى هـذا اندحار لابليس واغاظة له فى يوم انتصار للتقوى على الفجور فى النفس الانسانية وللحق على الباطل وللمسلمين على أعدائهم من شياطين الانس والجن،انه اليوم الذى تتحقق فيه عبوديتهم لله عز وجل ، عبوديتهم لله كأفراد ، وعبوديتهم لله كمجتمعات وقوميات ، وعبوديتهم لله كأمة واحدة .

انه اليوم الذى تخرج فيه على الدنيـا أمة محمـد ﷺ بمظهر فريد متميز من مظاهر خلافة الله فى الارض .

والخلافة لله فى الارض هى غاية الانسان الوجودية وهدفه فى الحياة .

وهدف ابليس وجنوده من الصراع مـع بنى آدم هـو

تنحيتهم عن هذه المكانة الوجودية العالية الرفيعة • ووسائل ابليس وجنوده لتحقيق هدفه الاستراتيجى كثيرة الا أن أولها وأخطرها هو محاولة التشكيك فى أصول الايمان ، وأخطر ما يشكك به الناس هو موضوع القضاء والقدر ومشكلة الجبر والاختيار •

ولابليس وجنوده من الجن والانس شبهات سبع ، هى خلاصة ما تفتق عنه ذكاء الكفر والشر خلال الزمان بهدف التشكيك من أصول الايمان •

عنهذه المعانى جميعا نتحدث باذن الله تعالى فى مقالات ثلاثة عن الانسان والشيطان •

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

المقـــال الاول

الانسان : خليفـــة بين بطانتين

١ ــ غاية الانسان فى الحياة بين التوحيد الابـــلامى وعقائد الشرك والكفر والمـــادية

من المعلوم بالضرورة أن الكائن الحكيم أو العاقل لا يفعل فعلا الا لحكمة أو لغاية ، ومن ثم فالفعل ليس الا وسيلة لتحقيق غاية أو حصول حكمة .

وهذا الامر ينطبق على أفعال الانسان ــ باعتباره كائنـــا عاقلا ــ سواء كان المقصود بالانسان ، فـــردا أو مجتمعا أو أمـــــة .

واذا كانت الحضارة حصيلة انتاج الفاعليـــة الانســـانية المتمثلة فى مقوماتها الثلاثة : الارادة المختارة ، فردا أو مجتمعا أو أمة ــ غاية وهدفا . وهذا معلوم بالنسبة للفـــرد ، وكـــذلك بالنسبة للمجتمع أو الامة حيث لكل جماعة ــ كبرت أو صغرت ــ ارادة جماعية أو اختيار جماعى يجمع عليه أكثر أفراد المجتمع ، ومن ثم تتوجه قرارات الدولة وتخطيطاتها وأفعالها نحو هـــذه الغاية العامة المعلنة وهـــذا فى شـــتى العـــلاقات الســـياسية

والاقتصادية والاجتماعية والقانونية • وهـو ما يعبرون عنـه حديثا بالنظم الاجتماعية ، وما العـادات والتقاليـد والامال والطموحات السائدة فى مجتمـع ما الا تعبيرا عن اختيار دائم ومستمرا للارادة الجماعية للمجتمع •

وبالنسبة لنهضة حضارية لامة من الامم أو لمجموعة من الامم يجمعهم اتجاه حضارى واحد فلابد أن يسبق بروز هذه النهضة حدوث ما أسماه الاستاذ مالك بن نبى رحمه الله تعالى الارادة الحضارية عند هذه الامة • أى أنه لابد أن تختار هذه الامة النهضة الحضارية كهدف وغاية تسعى اليها • ثم يتبع هذا الاختيار توظيف استطاعات الجماهير لتحقيقه بتوجيه العـلم والاستفادة منه الى أقصى درجة ممكنة فليست الحضارة الانتاج العمل والعلم •

ولا خلاف فى أن كل الامم تحتاج ـ لتحقيـق النهضـة الحضارية ـ الى هذه المقومات ، وذلك على مستوى الفـرد والجماعة والمجتمع والامة أيضا ، ويستوى فى هذا الامة المسلمة والامة غير المسلمة على السواء •

بيد أن الفرق الجوهرى والاسـاسى بين الامـة المسلمة المتحضرة أو الناهضة حضـاريا ، وبين الامة غـير المسـلمة

المتحضرة أو الناهضة حضاريا ، انما يتمثل فى الهدف أو الغاية من تحقيق هذه النهضة ومن اقامة الحضارة بصفة عامة • وهذا الاختلاف فى هدف الحضـــارة يؤدى بالضرورة الى اختـــلاف فى مفهوم الحضارة وصبغتها ووجهتها ومقوماتها ومكانة العلم من كل منهما • لان اختلاف الغايات يؤدى الى اختلاف الوسائل والمناهج المؤدية اليها • قال تعالى مبينا اختلاف الغـــاية بـــين المسلم والكافر فردا أو مجتمعا(ولكل وجهه هو موليها فاستبقوا الخيرات ـــ ١٤٨ ـــ البقرة) ويمكن أن يكون هـــذا الحـــكم بالنسبة للحضارات فنقول بأن لكل حضارة وجهة تتجه اليها •

ونعنى بها الاهداف البعيدة والغايات الاعلى لكل حضارة•

فالمسلم ـــ فـــردا كان أو مجتمعـــا أو أمة ـــ يدور ، فى أفعاله اليومية والتاريخية حول مركز معين • هذا المركز يرتبط أوثق الارتباط بعقيدة التوحيد •

فالايمان بالله واليوم الآخر ـــ حسب عقيـــدة التوحيـــد الاسلامية ـــ هـــو السبيل الوحيد للوصـــول الى التفســـير الصحيح لمعنى الحياة ولهدف الوجود الانسانى،والحكمة من خلق المخلوقات بعامة والانسان بخاصة •

أما فى ظل عقائد الشرك ، وتعنى بها العقائد التى تقـــر

بوجود الاله واليوم الآخر ولكن ليس حسب عقيدة التوحيد الاسلامية ، كاليهودية والنصرائية والبوذية وسائر الاديان الشرقية . فان أهل هذه العقائد يثبتون للحياة معنى وللوجود الانسانى هدفا ولكنهم يخطئون المعنى الصحيح للحياة ويعدلون عن الهدف الحقيقى لوجود الانسان .

أما الكافرون والملاحدة ، ونعنى بهم الذين ينكرون وجود الاله أو هؤلاء الذين يقرون بوجوده ولكنهم ينكرون اليوم الآخر وعالم الغيب ، فهؤلاء لا يعرفون للحياة معنى مقنعا للعقل ومرضيا للنفس ، كما أنهم يعجزون عن تحديد هدف أو غاية للانسان تليق بانسانيته وترتفع به عن مستوى الكائنات الحية الاخرى[1] .

وهذا ما قاله الفلاسفة الكافرون والملاحدة قديما وحديثا، منهم فى القديم أبيقور الذى قال (ان الحياة مهزلة فيها من

---

(١) من الكتب التى أثبتت عجز الماديين والملاحدة عن الوصول الى معنى للحياة كتاب جيمس مارتنو James Murtneau بعنوان (المادية الحديثة وعلاقتها بكل من الدين واللاهوت) .

Madern Matircalism and its relatin to rele'gieon and theolayy

عن كتاب دروس فى الفلسفة للدكتور محمد كمال جعفر ص٤٦

الخبل ما يستحيل معه أن يكون قد أبدعها عقل الهى)[٢] ومن ثم جعل أبيقور هدفه من الحياة تحصيل اللذة والبعد عن الالم، ولما كان تحقيق هذا الهدف أمرا مستحيلا بمعنى أن يستحيل أن يحيا الانسان حياة كلها لذة وخالية من الالم ، صرح أبيقور بأن الحياة مرض والموت شفاء منه قال (ان الموت لهو الطبيب الرفيق الذى يشفينا من أشد الامراض فتكا وهو مرض الحياة)[٣] .

ومنهم فى الحديث شوبنهور schopenhour الذى صرح بأنه كان يفضل أن يترك فى السكينة وسلام العدم من أن يوجد فى هذه الحياة التى ليس لها أى مغزى أو معنى سوى ما بها من شقاء حتى أنه يقرر أنه (من الواضح أن كل انسان كان سيرفض بالطبع قبول مثل هذه المنحة اذا قدر له أن يذوقها « كعينة من قبل ») ودليله على ذلك — حسب زعمه — أنه ليس للحياة هدف واذا كان للانسان فيها هدف فانه فى نظر كثير من الناس السعادة وتحقيقها أمر مستحيل .

يعبر ابيقور وتشوبنهور بهذه الاراء تعبيرا صريحا عن

---

(٢) أعلام الفلسفة ص ١٥١ عن دروس فى الفلسفة .

(٣) المصدر السابق .

موقف الملحدين من الدنيا والاخرة ، فهم يرفضون أن يكون ثمة حياة أخرى بعد الموت فيضيقون الوجـــود الانسانى الى حجم حياة الفرد القصيرة جدا بالنسبة لعمر الزمن فيصبح الوجود الانسانى تافها فلا تزيد قيمته واهميته عن قيمة واهمية حياة الحيوان هذا من الناحية العقيدية والفكرية ، أما من الناحية النفسية فان الواحد منهم يصبح صدره ضيقا حرجا وكانه قد حبس فى قفص حديدى ضيق • وبذلك تفقد الحياة الدنيا عندهم معناها ومغزاها ، حيث أن هذه الحياة ليست سوى مقـــدمة نتيجتها الاخرة ، فاذا نزعنا النتيجة من المقدمة أصبحت جملة غير مفيدة ، ومن ثم ينتهى الكافر الى الحيرة والتخبط وتسيطر عليه النظرة التشاؤمية حتى أنه يرى العدم خير مـــن الوجود التافه فى هذه الحياة وبتلك الحياة الدنيا بعد انكار الاخرة •

ولكن رفض هؤلاء الكافرين للحياة الدنيا هو على مستوى الفكر فقط دون مستوى السلوك • أى انه يشبته كنتيجة ادى اليها فكره الضال فقط لكنه لا ينفذ هذا الرفض عمليا بالانتحار مثلا • فهو اذا كان يزعم انه جاء الى هذه الحياة الدنيا دون اختيار منه فان الواقع يشهد بانه يملك الحرية فى ان يخرج من الحياة بالانتحار او يبقى فيها • افليس بقاءه فيها دليلا على حبه للحياة وايثارها على الموت او ما يسميه بالعدم ؟ وهذا هو

مارد به الله عز وجل على امثال هؤلاء الذين لا يقولون مثل هذه الاقوال الا لاضلال الناس فقط وصدهم عن سبيل الله قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقه لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت نبتت وانبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بان الله هو الحق وانه يحى الموتى و انه على كل شىء قدير ، وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من فى القبور ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفة ليضل عن سبيل اللل له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيام عذاب الحريق — ٣ — ٩— الحج)وهذا ينطبق على الكافر والملحد الذى يكذب فعله قوله ، فهو يزعم انه جاء الى الحياة الدنيا مجبرا والعدم خير منها مع ان الله عز وجل قد خير عبده المبتلى بين الدنيا والاخرة ولكن هذا الضال المضل يزعم انه ليس ثمة آخرة وان الدنيا عذاب وشقاء وهو لم يستشر قبل قدومه اليها او هو لم

يرض بها • لذلك يقول المولى عز وجل بعد ذلك (من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والاخرة فليمدد بسبب الـــى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ وكذلك أنزلناه آيات بينات وان الله يهدى من يريد — ١٥ — ١٦ — الحج) ومعنى فليمدد بسبب الى السماء أى فليعلق حبلا فى سقف بيته ليشنق نفسه منتحرا وهذا موجه الى من ظن فى الله أنه لـــن يعطيه الدنيا ولا الاخرة وهو حال الكافر الملحد الذى عبر عنه ابيقور فى القديم وشوبنهـــور فى الحديث • فلماذا لا يصدق فعله قوله وينتحر ؟ ولماذا لايشنق نفسه ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟

هذان مثلان لحيرة الكافر وتخبطه وضلاله بسبب عدم ادراكه بتفكيره العقلى المحض الى معرفة معنى الحياة وهدف الانسان الوجودى فيها •

أما المشرك فانه — مثل الكافر — لا يعرف الهدف الحقيقى ولنه يقرر لنفسه هدفا متوهما انه الهدف الصحيـــح ويقرر بوجود معنى الحياة لنكه لا يصل الى الحقيقى بل يصـــل الى معنى خاطىء تماما وذلك لان عقائد الشرك كلها تعبير عـــن افكار ومبادىء وهمية او خرافيه أو اسطورية لا تمت الـــى الحقيقة بصلة أو هى افكار حقيقية ممزوجة باخرى وهمية أو

خرافية ومن ثم توصل الى أهداف وغايات وهمية للانسان فى هذه الحياة (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجدهشيئا ٠٠ ٠ ــ ٣٩ ــ النور)٠

ونأخذ مثلا لذلك الفيلسوف المسيحى ديكارت الذى نادى بان يكون الهدف من افعال الانسان ومعرفته هو معرفة قوانين الطبيعة حتى يتمكن الانسان من السيطرة عليها ٠ اذن فالهدف البعيد للانسان هو السيطرة على الطبيعة ٠

وقد ظل هذا هدفا اعلى للحضارة الغربية حتى اليوم وان كان هدفا ماثلا فى انهان العلماء والتكنولوجيين اكثر من غيرهم من المفكرين والفلاسفة ، حيث أن الفيلسوف أو المفكر لا يستطيع ان يتوقف بالاسئلة التى يطرحها عقله عند حد معين ٠ فهدف العلماء والتكنولوجيين ليس هو الهدف النهائى للانسان حيث لا يلبث ــ فى نطاق الفكر والعقيدة ان يتحول الى وسيلة ويجد المفكر نفسه أمام سؤال جديد هو ولماذا نسيطر على الطبيعة ونسخرها ؟ فاذا جاءت الاجابة : لكى نستمتع بحياتنا ، انهالت بعد ذلك الاسئلة ؟ ولماذا نستمتع ، وما المتعة ؟ وهل هى السعادة ؟ وما السعادة ؟ وهل يمكن تحقيقها فى هذه الحياة ؟ وهكذا ٠ ٠ ٠ ٠ ومن ثم ينتهى الانسان بفكرة الى نفس الاسئلة المحلة التى حاول المحلد أو الكافر

الهروب منها وبذلك تصبح فكرة تسخير الطبية كغاية للعلم والتقنية غير صالحة لان تكون هدفا وجوديا كافيا للانسان • فما لم يرتبط هذا الهدف بالوجود الاحروى ويؤدى اليه فلن يكون هدفا صحيحا ولا غاية حقة أو كافية لان تفرق بين الانسان والحيوان لان احد الفروق الجوهرية بينهما هو خلود الانسان وبقاؤه بعد الموت ومن ثم لا يمكن ان يكون هدف الانسان من الحياة قاصر فى اثره ومدلوله على الحياة الدنيا فقط والا اصبح هدفا فى نطاق طبيعة الانسان المماثلة للحيوانية • وهكذا تحيد عقيدة المشتركين بهم عن الوصول الى الغاية الحقيقية للوجود الانسانى •

وبمعنى احر نقول أنه فى ظل حضارة مادية ملحدة كافرة كالحضارة الغربية المعاصرة رفضت الايمان بالغيب وباليوم الآخر وقامت على الشك فى وجود الله عز وجل • نقول : مثل هذه الحضارة تقدم لنا الاجابة على السؤال : ما هو الهدف من الوجود الانسانى وما هى الغاية العليا من الفعل الانسانى العام المتمثل فى اقامة الحضارة بعامة وفى التقدم العلمى بخاصة ؟ تجيب بانه التطور • فاذا تساءلنا وما هو الهدف من التطور ؟ قالوا : المزيد من التطور • ولا شىء غير ذلك • وهذا هو بعينه

التيه والضياع الذى انتهت اليه الحضارة الغربية لاننا عندما نثبت التطور لابد أن نثبت معه الى ماذا يتطور الانسان بدون اثبات الهدف الذى يجب ان نصل اليه بالتطور تكون مسيرة الحضارة الغربية بلاوجهة محددة أو هدف معين ، ضياعا فى ضياع هذا بالنسبة للانسان كنوع •

أما بالنسبة للفرد فلا يمكن ان يكون التطور غاية فى حياته القصيرة لان التطور لا يتم الا من خلال العمل التاريخى ولا تنك انه من حق الجيل الواحد والفرد الواحد ان يسأل عن الهدف من حياته والغاية من وجوده القصير وهنا تعجز الحضارة الغربية بمفكريها وفلاسفتها وعلمائها عن تقديم الاجابة الصحيحة على هذا السؤال بل انهم يعجزون عن اثبات وجود معنى للحياة أو هدف لها كما مر بنا •

وهذا يدعونا الى عرض الاجابة الاسلامية النابعة من التوحيد الاسلامى •

٢ ــ غاية الانسان وهدفه فى الحياة حسب عقيدة التوحيد الاسلامية •

ان الحضارة الاسلامية لها هدف محدد ، وغاية معلومة،

ومن ثم لها وجهة معينة تتجه اليها ، ولذلك فهى ليست حضارة ضالة تائهة ضائعة كالحضارة الغربية المعاصرة •

لقد ربط القرآن الكريم ربطا بين الايمان بالله وباليوم الآخر وبالجنة والنار من ناحية وبين الهدف من وجود الانسان وتحديد المعنى الحقيقى للحياة فقال تعالى (وما خلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون — ٣٨، ٣٩ — الدخان) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم — ١١٥، ١١٦ — المؤمنون) • فأثبت سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين أن الكافر الذى ينكر الرجوع الى الله فى الآخرة يصف بهذا الانكار الا له بالعبث واللعب أى أنه يجعل غاية الحياة والهدف من الانسان مجرد اللهو أو كأنه ينفى أن يكون للانسان هدفا وغاية ومن ثم يكون فعل الله وخلقه للعالم لهوا وعبثا ولعبا تنزه الله عز وجل عن ذلك وعلا وعلوا كبيرا •

أما المؤمن فهو يعلم ان الله خلق الخلق بعامة وخلقه بخاصة لحكمة وان له هدفا فى هذه الحياة قال تعالى (ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى

لاالباب الذين يذكرن الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار — ١٩١ — آل عمران) •

فأثبت أن الله خلق السماوات والارض بالحق ولحكمة وأن للانسان هدفا ينتهى اليه أو يجب ان ينتهى اليه •

والآن الى السؤالين المطروحين من قبل :

ما الحكمة من خلق الانسان ؟

وما الهدف من وجوده ؟

قد يتبادر الى الاذهان لأول وهلة أن السؤالين هما سؤال واحد مكرر ، ولكن هذا ليس صحيحا ، لان خلق الانسان من فعل الله عز وجل ، والخلق منسوب لله وحده ، أما الغاية من وجود الانسان فهى منوطة بالفاعلية الانسانية وعلى الانسان ان يسعى لبلوغها ، ومن ثم يمكن وصف هذه الغاية بانها التكليف العام للانسانية •

وبتعبير آخر يمكن القول بأنه لا يجوز ان ننسب الغاية من حياة الانسان لفعل الله عز وجل هو الغنى عن العالمين ، عمن سواء ، وان كان تحقيق الانسان لهذه الغاية أو لخلافها يتم — ككل شىء فى الكون — بقضاء الله وقدرة •

وعلى ذلك فالحكمة من خلق الانسان غير الهدف من وجوده ٠ ٠ ٠

أما عن الحكمة فقد قال تعالى (وهو الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا — ٧ — هود) فالحكمة من خلق المخلوقات بعامة هى ابتلاء الانسان والحكمة ايضا من خلق الانسان هى ابتلاء الانسان قال تعالى (٠ ٠ ٠ انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتلية فجعلناه سميعا بصيرا — ٢ — الانسان) ٠

وكل ما على الارض من متناقضات ومتضادات حيرت الفلاسفة والمفكرين وسببت عند كثير منهم النظرة التشاؤمية للحياة كل هذه ارادها الله عز وجل للابتلاء والامتحان والاختيار٠ فالموت والحياة والشر والخير والمرض والصحة والالم واللذة والشقاء والسعادة والفقر والغنى كل ما يضر الانسان وكل ما يسره ، كل ذلك للابتلاء فبالنسبة للموت والحياة قال تعالى(الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور — ٢ — الملك) ٠

وبالنسبة لتعليل وجود الشر فى هذه الحياة ووقوعه من

العباد باذن الله تعالى فهو ايضا للابتلاء قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون — ٣٥ — الانبياء) ٠

وكل ما يمتع الانسان ويبهجه فهو أيضا للابتلاء قال تعالى (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا — ١٧ — الكهف) ٠ وكذلك اثبت جل وعلا أن المال والاولاد هم للابتلاء (واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنه وان الله عنده أجر عظيم — ٢٨ — الافعال) ٠

وكما ان كل ما يسر الانسان للابتلاء فقد جعل الله ايضا كل ما يؤلمه ويسبب له الضر للابتلاء أيضا قال تعالى معددا انواع الابتلاءات بالضراء (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشّر الصابرين — ٥٥ — البقرة) ٠

فحقيقة الابتلاء هى الحكمة التى من اجلها خلق الله السماوات والارض والانسان ، ولما كان الانسان هو الكائن المبتلى فان المخلوقات الاخرى تصبح فى عقيدة الاسلام مخلوقة للانسان فليس لها هدف مستقل فى وجودها عن الانسان بل كل شىء خلقه الله بطبائع وقوانين ونواميس تحقق الابتلاء للانسان ٠ اللهم الا الجان لانه مخلوق مبتلى كالانسان ومع

ذلك فان الله عز وجل يبتلى الانس بالجن والجن بالانس •

وعلى تلك فالابتلاء يتم فى حياة الانسان بالفاعلية الآلهية، ومن ثم امر جبرى ولا يستطيع الانسان له دفعا ، فليس فى مكنه الانسان ان يدفع عن نفسه الابتلاء أو يهرب منه سواء كان ابتلاء بالسراء أو الضراء • هذا عن الحكمة من خلق الله عز وجل للانسان •

اما عن الهدف من وجود الانسان فى هذه الحياة الدنيا او الغاية التى يجب على الانسان ان يسعى اليهـا فهو الفوز فى الابتلاءوهذا لا يكون الا بطاعة الله عز وجل وعبادته،وليستهذه الطاعة هى الهدف النهائى لافعال الانسان بل هى بالتالى وسيلة يفوز بها العبد بالملك الابدى ، بالجنة ، يقول عز وجل (ومـا خلقت الجن والانس الا ليعبدون — ٥٦ — الزاريات) يجب ان يفهم من خلال مفهوم واضح هو أن عبادة الانسان لله عز وجل هى عطاء من الله للانسان وليست عطاء من الانسان لله ، فعندما يعبد الانسان ربه ، فانه يفعل بذلك ما يجعله مستحقا للملك الابدى ، أى بجنه عرضها السماء والارض ، أو كعرض السماوات والارض•أى أنه بتعبير آخر عندما يطيع فانه يسلك السبيل القويم فى الابتلاء ، هذا السبيل الذى يوصله — برحمة من الله وفضل — الى الجنة •

ولذلك نفى الله ان تكون عبادة الانسان له عطاء له عز وجل فهو الغنى عن عبادتهم وهم الفقراء اليه والمحتاجون الى عبادتهم له•لذلك قال تعالى بعد قوله (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون — ٥٦ — الذاريا).قال (ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين — ٥٨ — الذاريات) • فنفى حاجته لغيره وأثبت حاجة كل ما سواه ومن سواه له سبحانه • فالحكمة صفة الهية وعندما خلق اللهالانسان خلقة لحكمة وفاعلية الله عز وجل هى المحققة للحكمة أما هدف الانسان وغايته فى الحياة الدنيا فهى التكليف العام الذى كلف الله به الانسان ، ومن ثم فهو يتعلق بفاعلية الانسان •

وهكذا يتبين لنا الفرق بين الحكمة من خلق الله للعالمين وللانسان وبين الهدف من وجود الانسان فى الارض وغايته فى الحياة الدنيا • فالاولى منسوبة لله عز وجل ومن ثم فهى تتحقق فى حياة الانسان جبرا • ونعنى بها الابتلاء أما الثانية فهى منوطة بالفاعلية الانسانية وتقع من الانسان اختيارا ونعنى بها العبادة •

فاذا كانت العبادة منوطه بالفاعلية الانسانية وهى — أى العبادة — غاية الانسان فى هذه الحياة والعلم مقوم أساسى

للفاعلية الانسانية • تبين لنا اهمية العلم وقيمته لارتباطه الوثيق بالهدف من الوجود الانسانى وصلته المباشرة بالغاية من حياة الانسان فى الدنيا •

لكن اذا كانت العبادة هى غاية الانسان والابتلاء هى الحكمة من وجوده ، فما هى الحقيقة التى تربط بينهما فى الوجود الانسانى ومن ثم تصلح لتكون غاية انسانية عامة يسعى اليها الانسان فى حياته الدنيا كفرد وكمجتمع وكجيل وكامة وكنوع أو بمعنى آخر نقول : قد يقال أنه من الميسور على الذهن أن يتفهم العبودية لله كهدف للانسان حالة كونة فردا أو ذاتا منفردة أما كحالة كونه مجتمعا أو أمة أو باعتباره نوعا من الخلق فكيف تكون العبادة غاية لحياته وما الفرق بينه — كنوع وبين نوع آخر هم الملائكة الذين لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟

ولاجابة على هذا السؤال نقول : ان الهدف العام للانسانية — حسب عقيدة الاسلام — هو الخلافة لله • فالخلافة هى الغاية العليا لحياة الانسان كنوع وكمجتمع وكأمة وكفرد ايضا • وهذا يعنى ان الخلافة هى غاية حركة الانسان التاريخية فى الاسلام ، فهى هدف حركة الانسان وافعالة التاريخية ،

ومنطلقها وصبغتها ووجهتها •وبدون الخلافة للـــه لا تكون الحضارة اسلامية ، بل تكون بالقطع حضارة جاهليـــــة أو مادية أو حضارة غير اسلامية على أى حال •

فبالخلافة لله عز وجل يتميز الوجود الانسانى عن الوجود الملائكى لان الخلافة لله اكثر من كونها عبودية لله عز وجل •

وبالخلافة يتميز الوجود الانسانى ايضا عن الوجـــود الحيوانى •

وبعلم الاسماء اصبح آدم أهلا للخلافة وبطل تعجب الملائكة وتميز عن سائر الاحياء الاخرى فى الارض والسماء •

ومن ثم يرتبط العلم بالهدف العام للانسانية ، فما هـــى الخلافة ؟

٤ ــ غاية الانسان فى الحياة الدنيا حسب عقيدة التوحيد الاسلامية واهمية المعرفة فى الوصول اليها : ــ

(أ) ــ التكليف العام للانسان كنوع :

علمنا ــ مما سبق ــ أن الله عز وجل خلق الانســـان للابتلاء ، ومن ثم جعله الله فاعلا أى مريدا مستطيعا عارفا •

وعلمنا كذلك ان عبادة الله وحده ، هى السبيل الوحيد — أمام الانسان — للفوز بالآخرة •

فالغاية التى يجب على الانسان ان يوجه فاعليته نحوها فى جميع افعاله الفردية والاجتماعية والتاريخية هى عبادة الله عز وجل ، لا يجوز للانسان أن يكون له هدف آخر • قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون — ٥٦ — الذاريات) فحصر وقصر غاية افعال الجن والانس وهدف حياتهم الاسمى، الجزئى والكلى ، القريب والبعيد ، فى عبادة الله عز وجل وحده•

فاذا فهمنا أن عبادة الفرد تتمثل — اكثر ما تتمثل — فى اقامة الشعائر التعبدية ، وعبادة المجتمع لله تتمثل — أكثر ما تتمثل — فى تطبيق الشريعة الاسلامية أى النظم الاجتماعية الربانية ، فانه يبقى علينا بعد ذلك بيان مفهوم العبادة بالنسبة للانسان كحضارة تشمل العديد من المجتمعات خلال المكان ، والعديد من الاجيال خلال الزمان •

أو بتعبير آخر نقول : أنه يبقى علينا بيان مفهوم العبادة للانسان كنوع من المخلوقات ، أى التكليف العام للانسان الذى يجب عليه أن يؤدى فى حياته الدنيا ، ويوجه فاعليته نحوه لتحقيقه فى الارض • ويجعله مركز الدائرة الذى تدور

حولة فاعليات الافراد والمجتمعات والاجيال • فتصبح اهداف الافراد والجماعات والامم اسهامات فىتحق يق هذا الهدف الانسانى الاسمى •

فليس ثمة اختلاف او تغاير — فى عقيدة الاسلام— بين غاية الانسان كفرد أو كنفس وبين غايته كمجتمع من ناحية ، كما لا يوجد اختـــلاف أو تغاير بين غايـــة الفـــرد والمجتمع — فى الاسلام — وبين غاية الانسان كنوع من ناحية أخرى • فالغاية واحدة على جميع مستويات الحياة البشرية • ولكن لكل حالة تكليفها وتشريعها الخـــاص ، والذى يتمكن به الانسان من تحقيق هذا الهـــدف •

وقد يفهم البعض من هذا أن الفوارق الفردية منعدمة بين الناس ، أو أن الاســـلام لا يعترف بهـــا — ما دام يجعل غاية الناس جميعا فى الحياة واحدة — وكأنهم جميعا قـــد صبوا فى قالب واحد وعليهم أن يختطوا خطا واحدا فى حياتهم ويفعلوا أفعالا واحدة متشابهة ، وهذا فهم خاطىء تماما •

كذلك قد يفهم البعض أن المجتمع البشرى لابد — حسب شريعة الاسلام — أن يكون هو هو فى كل زمان ومكان من حيث

أن له غاية واحدة ، الامرالذى يجعله جامدا غير متطور ومتغير• وهذا أيضا فهم خاطىء تماما •

فوحدة الهدف لا تعنى بالضرورة انمحاء الفوارق الفردية بين الافراد ، ولا تعنى تجاهل الاسلام للاختلافات العرقية والطبيعية بين المجتمعات والقبائل والشعوب ، بل يثبتها القرآن القكريم كواقع قائم بأمر الله عز وجل فى قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم — ١٣ — الحجرات) أى أن الفوارق الفردية والاختلافات العصبية والقبلية والبيئية والنشاطية بين المجتمعات أمر ضرورى لتحقيق غاية البشر الفردية والاجتماعية والانسانية • وذلك حيث تلتقى هذه الغايات جميعا فى النهاية عند غاية واحدة هى غاية الانسانية العليا • الا وهى الخلافة •

فالخلافة كهدف أسمى للانسان هى تحقيق وتأكيد للذات الانسانية على مستوى الفرد والمجتمع والامة ، بل وعلى مستوى الانسانية بعامة •

(ب) فما هى الخلافة :

قال الله عز وجل (واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى

الارض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : انى أعلم مالا تعلمون • وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم ، انى أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟• واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين — الايات من ٣٠—٣٤ — سورة البقرة) •

ويستنبط من هذه الآيام الكريمة المفاهيم الآتية :

أولا — قول الله عز وجل « انى جاعل فى الارض خليفة » يفيد أن هذا الكائن المختار للخلافة ليس مخيرا فى أن يكون خليفة أو لا يكون ، بل هو خليفة بمقتضى « الجعل » الالهى ، أى أنه خليفة بمقتضى الخلقة والجبلة والفطرة • ٢

ثانيا — هذا الكائن هو الانسان ، وذلك بالرغم من أن الانسان لا يسكن الارض وحده ، ففيها الجن ، وهو نوع من الخلق مبتلى ومكلف بالعبادة كالانسان ، ولكنه ليس مخلوقا

لخلافة الارض ، ومن ثم يتميز الانس عن الجن بالخلافة حتى فى حالة قيام كل منهما بطاعة الله وعبادته .

ثالثا — تعجب الملائكة من جعل الله عز وجل خليفة ، واقترن هذا التعجب بأمر كتموه فى أنفسهم ، وهو أحقيتهم بالخلافة أكثر من الانسان ، بسبب عدم علمهم بحقيقة الخلافة، وظنهم أن مؤهل استحقاق الخلافة يكمن فى تحقيق العبودية لله عز وجل وطاعته فقط ، وحيث انهم لا يفعلون الشر والفساد كالانسان ، وهم بذلك أكثر تحقيقا لعبوديتهم لله من الانسان فقد ظنوا فى أنفسهم جدارة واستحقاقا للخلافة ، وانهم أولى بها من الانسان ، وهذا واضح من قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟).

فبين الله عز وجل لهم ، أنه يعلم مالا يعلمون ، ولعل الذى لم تعلمه الملائكة عن حقيقة الخلافة هو أن الخلافة ليست عبودية فقط ، وانما هى عبودية وأمر آخر زائد عن العبودية أو أنها عبودية لله ، تختلف من حيث الظروف والاحوال والاهداف والنتائج عن عبودية الملائكة وسائر المخلوقات لله عز وجل ، ومن ثم أبطل الله تعجبهم بتعليم آدم الاسماء التى أقروا بعدم معرفتهم لها ، بينما أنبأهم آدم بها ، ومن ثم ثبت

لهم أن الله عز وجل قد زود آدم بمؤهل الخلافة الذى لم يزودوا هم به • وبذلك يدخل علم الاسماء كمقوم رئيسى من مقومات الخلافة ، بل يصبح هو جوهر الخلافة •

واقرار الملائكة بعدم معرفة الاسماء ، يتضمن اقرار الجن ممثلا فى ابليس بعدم معرفتها أيضا ، حيث كان معهم ابليس — وهو من الجن — كما أخبرنا الله عز وجل •

ومعنى هذا أن الانسان يتميز عن الملائكة والجن معا بعلم الاسماء ، وهذا العلم هو سر تفضيل الانسان وتميزه عليهما ، وهو مؤهل الخلافة وجوهرها •

رابعا — التعبير عن المعلومات التى تلقاها آدم وتعلمها من الله تعالى « بالاسماء كلها » يفيد عدة نتائج :

(أ) ليست الاسماء هى أسماء الله الحسنى — كما يظن البعض — ، وليست أيضا أسماء الملائكة ، كما يذكر آخرون • لان سياق الآيات ، وقواعد اللغة العربية لا يجيزان هذين القولين ، فقوله تعالى (ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) يعنى أن الله عز وجل لم يعرض الاسماء على الملائكة ، وانما عرض المسميات ، لان عرض

الاسماء يقتضى لغويا القول « ثم عرضها » ولان اسم الاشارة الخاص بالجمع « هؤلاء » يدل على أن المعروض كان المسميات وليس الاسماء ، هذا بالاضافة الى قوله تعالى « ثم عرضهم » وليس « ثم عـرضها » • ومن ثم يكون المطلوب من المـلائكة — بداهة — الانباء بالاسماء حيث المعروض هو المسميات •

هذا كله لا يجيز مطلقا ان يكون المقصود بالاسماء كلها أسماء الله عز وجل أو أسماء المـلائكة ، فلم يبق الا أن تكون أسماء الاشياء •

ولمـا كان سياق الآيات وموضوعها هو خلافة الانسـان فى الارض ، يكون من الارجح أن المقصود بالاشياء المعروضة هى الاشياء التى يستخدمها الانسان فى الارض •

وحيث أن الله عز وجل قال « الاسماء كلها » ، وحيث أن الخلافة فى الآيات أمر يخص الانسان كنوع ، وليس يخص آدم كنفس أو كفرد ، بل باعتباره ممثلا لنوعـه ، فان المقصـود « بالاسماء كلها » فى الآية ، هو الالفاظ التى يطلقها الانسان فى حياته الدنيا منذ خلقه الى يوم القيامـة ، لتمييز الاشـياء بعضها عن بعض ، ومن ثم تكون المعروضات التى عرضت على الملائكة ، فلم يستطيعوا أن يعـرفوا أسماءها ، هى نمـاذج

للاشياء والاحياء التى يستخدمها الانسان فى حياته الدنيا هى مدة الخلافة ، سواء كانت حيوانات أو نباتات أو جمادات طبيعية أو مصنوعات أو مخترعات ، وذلك منذ آدم الى أن يرث الله الدنيا وما عليها • يدخل فى ذلك خصائص هذه الاشياء وعناصرها وكيفياتها وسائر صفاتها ، لان هذه الخصائص والصفات والعناصر والكيفيات هى أيضا أشياء تحمل أسماء •

(ب) يؤكد تفسير الاسماء بهذا المعنى ارتباط الخلافة — كغاية عليا للانسان — أوثق الارتباط بعلم الانسان بالاشياء والاحياء وخصائصهما ، كما أنه يستبعد أن يكون علم الاسماء من اختصاص المعرفة الدينية التى تهدف الى تحقيق عبودية الانسان • والادلة على صحة هذه النتيجة :

١ — ان الاسماء ليست أسماء الله عز وجل ، فلو كانت أسماء الله عز وجل لكان هذا العلم فى مجال المعرفة الدينية •

٢ — عدم معرفة الملائكة للاسماء — وهم المسبحون والمقدسون لله — يبعد هذا العلم عن مجال المعرفة الدينية أيضا•

٣ — انتهاء تعجب الملائكة من جعل الانسان خليفة فى الارض بعد أن أنبأهم آدم بأسماء المعروضات ، يربط هذا العلم بالارض بما فيها وما عليها من أشياء وأحياء ، ويجعل هذا

العلم خاص بمجال آخر غير مجال تحقيق العبودية لله عز وجل.

(ج) التعبير عن المعلومات التى تلقاها آدم « بالاسماء » يفيد أن الله عز وجل علم آدم خصائص الاشياء وصفاتها وأعراضها ولم يعلمه حقائق الاشياء وجواهرها وماهيتها . لان الاسم لفظ يطلق على شىء لتمييزه عن الاشياء الاخرى ، فلكل شىء اسمه ، وهو عادة ما يدل على صفة من صفاته أو خاصية من خصائصه ، باعتبار أن الاسم ليس سوى علامة صوتية أو مصطلحا لفظيا دالا على المسمى .

وكما أن لكل صفة أو خاصية من خصائص الشىء الواحد اسم يميزها أيضا عن غيرها من الخصائص ، كذلك لكل عنصر أو عضو أو جزء من أجزائه اسم يميزه عن سائر الاعضاء والعناصر والاجزاء .

وعلى هذا فمعرفة آدم بالشىء — وكذا سائر الناس — لا تتعدى الخصائص والصفات والعوارض والكيفيات . وكذلك لا يعرف الانسان حقيقة أو جوهر الخاصية ، وانما يعرف اسمها فقط ، فاذا أراد أن يعرف شيئا عمد الى تحليله الى عناصره وخصائصه ومكوناته ، ولكنه ينتهى — فى الحقيقة — الى معرفة أسماء العناصر والمكونات والخصائص لا الى حقيقة

هذه العناصر • فاذا أراد أن يعرف الخاصية أو العنصر الواحد عمد الى تحليله ليصل فى النهاية أيضا الى معـرفة عناصره ، ولكنه لا يعرف من كل عنصر من هـذه العناصر الا اسمـه ، وخصائصه التى لا يعلم عنها الا اسم كل منها ، فاذا أراد أن يعرف كل منها عمد الى تحليل كل منها ليصل فى النهاية أيضا الى عناصرها الجديدة التى هى بالنسبة له — ليست شيئا سـوى أسماء — وهكذا • فمعرفة الانسان للاشياء تتمثل فى معـرفته لخصائصها وعنـاصرها متمثلة فى أسمائهـا وفى التفاعـلات والتأثيرات بين هـذه الخصائـص والعنـاصر ، ولمـا كانت التأثيرات والتفاعلات بين الاشياء أسماء أيضا • فان معرفـة الانسان بالاشياء قاصرة على معـرفة الاسماء ، كما علمه الله عز وجل ، وكما أخبرنا عن ذلك فى القرآن الكريم •

يدل على ذلك أن الله عز وجل ، لو علم آدم حقيقة الشىء وجوهره لقال « وعلم آدم الاشياء » ولكنه عـز وجـل قال « وعلم آدم الاسماء » فثبت قصر علم الانسان على الخصائص دون الحقائق •

خامسا — ليس أمر الله عز وجل بسجود الملائكة — بمـا فيهم الجن ممثلين فى ابليس — أمرا بعبادة آدم • وانما هـو

بمثابة الاقرار والاعتراف لآدم بالخلافة فى الارض •

ولكن — ممـا لا شك فيه — أن التعبير عن الاقـرار والاعتراف بالسجود يتضمن تفضيل المسجود له على الساجد ، ومن ثم فالخلافة درجة وجودية عليا بين المخلوقات ، ومـركز كونى سامى ومرموق بينهم ، اصطفى الله الانسان له من دونهم جميعا • يدل على هذا أيضا — بالاضافة الى أمر الله للملائـكة بالسجود — استشرافهم لهذا المركز الجودى والمـكانة العليا ، وان كتموا هذا فى نفوسهم ، ويدل على هذا أيضا ، حقد ابليس وحسده للانسان بسبب هذا التفضيل ، ورفضه — لعنه الله — السجود ، أى الاقرار والاعتراف للانسان بهذا الفضل •

وليس يعنى السجود مجرد الاقرار والاعتراف فقـط بخلافة الانسان فى الارض ، وانما يعنى أيضا ويتبعه عمـل يتعلق بمساعدة الانسان على تحقيق الخلافة ، فالملائكة وهم جنود الله عز وجل فى السماوات والارض ، مجندون — بمقتضى السجود لآدم — لمساعدة الانسان لتحقيق غاية وجوده العليا فى هذه الحياة الدنيا المتمثلة فى الخلافة •

ويستتبع هذا المعنى لسجود الملائكة ، معنى آخر هو أن رفض ابليـس وابائه السجود لآدم ، معناه توجيه فاعليته

وامكاناته ونشاطه هو وجنوده نحو هدف محدد هو منع الانسان من تحقيق خلافته لله فى الارض •

لقد سخر الله عز وجل النواميس الكونية والطبيعية بحيث تلتقى غايات المخلوقات جميعا واهدافها لتحقيق غاية الانسان •

سخر الله عز وجل للانسان الشمس والقمر والنجوم والبحار والانهار والنبات والاحياء والمعادن والارض وكل ما على الارض من عناصر وكل ما تحت الثرى من ثروات ، وسخر كل ذلك وجعله جميعا قابلا لتأثير الانسان وفاعليته بحيث يتمكن الانسان من تحقيق خلافته • ولم يبق بعد خلق آدم الا تجنيد الملائكة لهذه الغاية الانسانية ، فكان اخبار الله عز وجل لهم ، بأنه جعل الانسان خليفة فى الارض ثم كان الحوار الذى دار بين الله عز وجل وبينهم ، والذى انتهى بابطال تعجبهم ثم أمر الله لهم بالسجود لآدم • ومن ثم كان هذا الامر بمثابة دخول الملائكة مع بقية المخلوقات — بمشيئة الله — كعمال وموجهين لفاعليتهم — التى هى فاعلية الله عز وجل لمساعدة الانسان لتحقيق هدفه فى الحياة •

وهكذا أصبح موقف الانسان الوجودى بالنسبة لغايته

العليا بين تأثيرين ، الاول تأثير الملائكة الذين ينفذ الله بهم مشيئته فى حياة الانسان ، فيساعدونه ويأخذون بيده نحو تحقيق الغاية التى خلق من أجلها ومع الملائكة فى هذا الموقف نواميس الكون ، وقوانين الطبيعة ، وخصائص الاشياء والاحياء فى الارض ، هذا من ناحية ، والثانى تأثير الشياطين من الانس والجن ، جنود ابليس الذين يعملون جاهدين فى محاولة منع الناس من الوصول الى هذا الهدف ، أو فى محاولة تحريف اتجاههم عنه •

ونتيجة زحزحة الانسان عن درجة الخلافة التى هى أحسن تقويم ، هى تسفل الكافر بكفره أسفل سافلين ، فيشقى الشقاء الابدى مع ابليس فى جهنم •

لقد امتلأت نفس ابليس اللعين بحقد لا حدود له نحو آدم وبنيه ، منذ أن اصطفى الله الانسان للخلافة ، وكرمه على سائر المخلوقات ، فأصبح أهم وأبرز معنى للشيطان يتجسد فيه وجوده هو العداوة للانسان ، عداوة لا تفتر ولا تضعف ولا تلين • وحقد متأجج لا ينطفىء ولا يخبو بل تتطاول ألسنته لدفع الانسان عن كرسى الخلافة فيهوى فى النار •

هذا هو الشيطان الذى حذرنا ربنا عز وجل منه أشد

تحذير قال تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين — ١٦٨ — البقرة) وقال تعالى (ان الشيطان للانسان عدو مبين — ٥ — يوسف) وقال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا — ٦ — فاطر) .

ولكن الشيطان العدو للانسان ليس هو ابليس وجنوده من الجن فقط ، حيث له جنود من الانس أيضا ، قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن — ١١٢ — الانعام) ، وشياطين الانس هم حملة لواء الكفر والداعين اليه من المفكرين والادباء والمحافظين عليه من الحكام الكافرين وغيرهم من كبار الاعوان والمفسدين فى الارض فى شتى مجالات الحياة . لذلك قال تعالى أيضا (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين — ٣١ — الفرقان) .

وذلك لان ابليس وجنوده من الجن — كما سنعرف بعد — لا يمكنه أن يفعل فى الانسان الا الوسوسة وتزيين الشر والدعوة الى الكفر ، أما شيلطين الانس وأكابر المجرمين فيهم فهم مستطيعون على فتنة الناس وتعذيبهم وارهابهم وقتلهم وابادتهم وتنفيذ مخططات ابليس بشتى الوسائل فى حياتهم ، لذلك عمل ابليس وجنوده من الجن على تحويل أتباعه من الانس

الى شياطين وجنود مطيعين له قال تعالى (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين — ٣٦ — البقرة) فبين سبحانه أن بعضا من بنى آدم سيصبحون أعداء للبعض الآخر وهذا يعنى أن منهم من سيتحول من حزب الله عز وجل الى حزب ابليس ، فيكونون أعداء للبشر بل يصبحون شياطين وان كانوا من الانس ، قال تعالى (أن يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا — ١١٧ ، ١١٨ — الساء) .

ان العجب العجاب أن يتخذ الانسان من عدوه وليا يستبدل ابليس وجنوده بالله وملائكته ، وبئس للظالمين بدلا قال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا — ٥٠ — الكهف) .

ابليس وجنوده من الجن والانس عدو للمؤمنين ، فمن هم جنوده من الانس ؟. قلنا أنهم كل الكافرين من المفكرين والفلاسفة والزعماء والقادة . ومن الذين على رأس شياطين لانس منذ نزول القرآن وحتى زماننا هذا الى ان شاء الله تعالى

هم اليهود • قال تعالى (ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا — ٨٢ — المائدة) •

واذا وضعنا حقائق هذه الآية الكريمة وما قبلها فى صورة قياس منطقى يكون كالآتى :

اليهود هم أشد الناس عداوة للمؤمنين •

اذا هم شياطين الانس •

وبلغة الرياضة يمكن صياغة المعادلة كالآتى :

(أ) شياطين الانس = (ب) أشد عداوة للمؤمنين

(ج) اليهود = (ب) أشد عداوة للمؤمنين

اذا (أ) شياطين الانس = (ج) اليهود

وذلك لانه اذا كان أ = ب

و ج = ب

فان أ = ج

وعلى ذلك فان موالاة اليهود تعنى موالاة الشياطين واتخاذهم أولياء بدلا من اتخاذ الله عز وجل وليا ، وهذا هو الكفر •

وفى ظل الصراع الدموى الذى تعيشه أمة الاسلام ضد

شياطين الانس والجن يجب أن يتذكر كل مسلم هـذه القضية الواضحة البسيطة التى أخبرنا بها ربنا عز وجل وهى أن موالاة اليهود كفر بالله عز وجل وانتقال من يفعل ذلك من حزب الله الى حزب الشيطان •

وهذا هو الهدف الذى تسعى اليه الشياطين مع بنى آدم•

وأقصر الطرق لتحقيقه هى ايقاع الانسـان فى الكفر أو الشرك أو الالحاد ، لانه ليس بعد الكفر ذنب •

ومن ثم فان أخطر وسوسة يقوم بها ابليس وجنوده من الجن والانس حيال الانسان ما كان منها فى مجـال العقيدة ، وأخطر نشاط ابليس — بلا شك — حيال الانسان هو ما كان مصوبا نحو ايمان الانسان الفطرى حيث الوسوسة فى مجـال العقيدة سهام مسمومة مصوبة الى القلوب اذا أصابت هدفها أطفأت مصباح الايمان فيها ، واستراح ابليس بعـد ذلك من هذا المصاب الذى اسود قلبه وانطفا مصباح الايمان فيه ، بل ضمن تحوله من معسكر الحق الى معسكر الباطل وأصبح الكافر عونا له فى تحقيق هدفه •

وفى مجال زحزحة الانسان عن ايمانه الفطرى واجتياله

عن دينه الى أديان وعقائد الشرك والكفر والالحـــاد ، يســـلك ابليس وجنوده طريقا قصيرا أيضا لتشكيك الانسان فى أصول الايمان الا وهو اثارة شبهات سبع تدور حـــول قضية الجبر والاختيار • ورغم أن هذه الشبهات قديمة ، الا أن أعوان ابليس من الانس لا زالوا يثيرونها بين الحين والحين ، وبشتى الصور والاساليب الفكرية والادبية والفنية •

وعن شبهات ابليس الســـبع فى الفكر والادب ســـيكون حديثنا القادم باذن الله تعالى •

المقـــال الثانى

شـــبهات ابليس السبع فى

الفـــكر والادب

لا يخفى على أحد أن مسألة الجبر والاختيار ، أو قضية القضاء والقدر من أصعب المسائل الدينية ، ومن أعقد المشاكل الفلسفية التى واجهت الفكر البشرى على مدار تاريخه الطويل، ان لم تكن أصعبها وأعقدها على الاطلاق .

شهد بذلك الائمة المجتهدون والعلماء البارزون فى ســـائر الاديان السماوية ، وأقـــر به الفلاســـفة والمفكرون فى مختلف المذاهب والاتجاهات .

ويمكننا أن نجد فى مجال الفكر الاسلامى أكثر من تصريح يثبت هذه الصعوبة ، مثال ذلك ما يقرره ابن سينا من أن القدر سر الله ، كما يصرح ابن رشد بأن أدلة العقل والنقل حيال مشكلة القضاء والقدر متناقضة ، حتى شيخ الاسلام ابن تيمية يصرح بأن مسألة خلق أفعال العباد مشكلة .

ولعل أقدم وأشمل صياغة تضمنت عناصر هـــذه المشكلة

وردت متفرقة فى التوراة اليهودية[١] على شكل مناظرات بين ابليس والملائكة[٢] . كما وردت أيضا هذه الصياغة (مسطورة فى شرح الاناجيل الاربعة : انجيل لوقا ومارقـوس ويوحنا ومتى)[٣] .

ويتضمن حوار ابليس للملائكة فى هـذه المناظرات سبع أسئلة يشكل كل منها شبهة من شـبهات ابليس السبع ، وكلها تدور حول حرية المخـلوق الى فاعليته ، والركائز التى تقـوم عليها هذه المسئولية ، ثم — وبناء على ذلك كله — الانتهاء الى التشكيك فى ثبوت العدالة الالهية حيال مصير الكافرين وأولهم وعلى رأسهم ابليس .

---

(١) أى التوراة المحرفة ، حيث أن المعلوم أن التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام ليست هى التى بين أيدى اليهـود الآن ، حيث حرفها الاحبار ، وقد سجل عليهم القرآن الكريم ذلك.

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل — نشر مؤسسة الحلبى — القاهرة جـ١ ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة . ويجدر التنبيه أيضا الى أن هذه الاناجيل ليست هى الانجيل الذى نزل على عيسى عليـه السلام ، ومن ثم تكون هذه الشبهات الواردة فى النص من صنع الفكر البشرى .

ويتخذ ابليس — فى مناظراته للملائكة — من معصيته للامر الالهى بالسجود لآدم أساسا ومثلا لهذه الشبهات ، حيث يحاول جاهدا أن يثبت وقوع المعصية منه بتقدير الله عز وجل السابق لها ، حتى يوهم بأن جزاء الله عز وجل له بالطـــرد من رحمتـــه وتخليده فى النار متعارض مع العدالة الالهية المطلقة .

ويورد الشهرستانى شبهات ابليس لعنه الله كما يلى :

قال كما نقل عنه :

انى سلمت أن البارى تعالى الهى واله الخلق ، عالم قادر ولا يسأل عن قدرته ومشيئته ، وأنه مهما أراد شيئا قال له كن فيكون .وهو حكيم ، الا أنه يتوجه على مساق حكمته أســئله قالت الملائكة : ما هى ، وكم هى ؟

قال لعنه الله : سبعـــة .

الاول منها : أنه قد علم قبل خلقى أى شىء يصـــدر عنى ويحصل منى ، فلم خلقنى أولا ؟ وما الحكمة فى خلقه اياى ؟

والثانى : اذ خلقنى على مقتضى ارادته ومشيئته ، فـــلم كلفنى بمعرفته وطاعته ؟ وما الحكمة فى هذا التكليف بعـــد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية ؟

والثالث : اذ خلقنى وكلفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة ، فعرفت وأطعت ، فلم كلفنى بطاعة آدم والسجود له ؟ وما الحكمة فى هذا التكليف على الخصوص ، بعد أن لا يزيد ذلك فى معرفتى وطاعتى اياه ؟

والرابع : اذ خلقنى وكلفنى على الاطلاق ، وكلفنى بهذا التكليف على الخصوص ، فاذا لم أسجد لآدم ، فلم لعننى وأخرجنى من الجنة،وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحا الا قولى : لا أسجد الا لك ؟

والخامس : اذ خلقنى وكلفنى مطلقا وخصوصا فلم أطع فلعننى وطردنى ، فلم طرقنى الى آدم حتى دخلت الجنة ثانيا ، وغررته بوسوستى ، فأكل من الشجرة المنهى عنها • وأخرجه من الجنة معى • وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو منعنى من دخول الجنة لاستراح منى آدم ، وبقى خالدا فيها •

والسادس : اذ خلقنى وكلفنى عموما وخصوصا ، ولعننى ثم طردنى الى الجنة ، وكانت الخصومة بينى وبين آدم فلم سلطنى على أولاده ؟ حتى أراهم من حيث لا يروننى ، وتؤثر فيهم وسوستى ولا يؤثر فى حولهم وقوتهم وقدرتهم

واستطاعتهم ؟ وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنها فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين ، كان أحرى بهم وأليق ، ما الحكمة ؟

والسابع : سلمت هذا كله : خلقنى وكلفنى مطلقا ومقيدا، واذ لم أطع لعننى وطردنى ، واذا أردت دخول الجنة مكننى وطرقنى ، واذ عملت عملى أخرجنى ثم سلطنى على بنى آدم ، فلم اذ استملهته أمهلنى ؟ فقلت (أنظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى الوقت المعلوم) وما الحكمة فى ذلك؟ بعد أن لو أهلكنى فى الحال استراح آدم والخلق منى ، وما بقى شر ما فى العالم ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيرا من امتزاجه بالشر ؟.

قال : فهذه حجتى على ما ادعيته فى كل مسألة . قال شارح الانجيل : فأوحى الله تعالى الى الملائكة عليهم السلام : قولوا له انك فى تسليمك الاول أنى الهك واله الخلق غير صادق ولا مخلص . اذ لو صدقت انى اله العالمين ، ما احتكمت على بلم . فأنا الله الذى لا اله الا أنا . لا أسأل عما أفعل . والخلق مسئولون .

هذا الذى ذكرته مذكور فى التوراة ومسطور فى الانجيل على الوجه الذى ذكرته)[١] .

ولا شـــك أن أسئلـــة ابليس السبعة من قـــوة التلبيس بحيث أنه يصعب على المرء بعد سماعها ان يتحـــاشى ما تثيره فى نفسه من شكوك وشبهات حول أصول الايمان . وسنرى ان اختلاف الفرق الفكرية فى الاســـلام وفى الاديان السماويـــة السابقة انطلق فكريا ونظريا من محور هذه الاسئلة جميعـــا ، وأعنى به موضوع القضاء والقدر .

أما ما جـــاء تعقيبا أو اجابة على هـــذه الاسئلة منسوبا لشارح الانجيـــل ، فانه وان كان منطقيا ، الا أنه لا يعتبر — كاجابة على هذه الاسئلة ورد على هذه الشبهات — بمثابة الرد الصحيح المقنع الذى يناظر الاسئلة فى قوتها .

وليس يخفى على أحد أن ايراد الشبهـــة أو الاعتراض ملفوفا فى صيغة منطقية وحجة قوية ، ثم ايراد الاجابة عليها بحجج ضعيفة ، وبراهين مهزوزة خافتة ، ينتهى بالقارىء أو

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤—١٦ .

السامع الى تثبيت وجه الاعتراض فى نفسه ، وتعميق الشك والريب حول الموضوع قيد البحث .

وهذا الرد المقدم من شارح الانجيل — على ما يذكر الشهرستانى — أوضح مثال على ذلك . فالاجابة كلمة حق يراد بها باطل . ذلك أنه لا يمارى مؤمن بأن الله عز وجل الذى لا اله الا هو لا يسأل عما يفعل ، وأن نفاذ مشيئته وفعله من مقتضيات الالوهية . ولكن ليست هذه هى الاجابة على أسئلة ابليس ، وليست هى الرد على شبهاته . لان الاسئلة السبعة تدور كلها حول معرفة الحكمة من ارادة الله عز وجل لما أراد .

ولا شك أن الله عز وجل حكيم ، وهذا يعنى أنه عز وجل — فوق أنه فعال لما يريد ولا يسأل عما يفعل — فانه يفعل لحكمة . وعندما يتساءل المرء عن الحكمة من خلق السماوات والارض ، أو خلق الانسان ، أو خلق الجان ، أو خلق الملائكة ، فانه لا يكون فى موضع المحاسب لله عز وجل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وانما فى موضع الباحث عن الحكمة من خلق الله سبحانه وتعالى لهذه المخلوقات ، ومحاولة منه لمعرفة الغاية من وجود كل منها . فهو سؤال استفسارى وليس سؤالا

للمحاسبة والمحاكمة • فهو ليس من قبيل لم فعلت كذا ولم لم تفعل غيره ، ولكن من قبيل ما الحكمة من فعلك كذا •

وبذلك تبدو اجابة شارح الانجيل — باعتبارها تعزى حدوث ذلك كله الى القدرة الالهية فقط — متجاهلة لصفة الحكمة التى وصف الله عز وجل بها نفسه • ويبدو الامر — نتيجة لهذه الاجابة — كما لو أن الاله بما فعل مع ابليس وآدم وأبناء آدم، قد فعل ذلك كله بلا حكمة مقبولة للعقل ومرضية للنفس • ومن ثم ينتهى الرد من شارح الانجيل الى وصول أعداء الايمان والمشككين والملاحدة وعلى رأسهم ابليس الى هدفهم من هذه المناظرة ، وهو القاء بذور الشك حيال حقائق الدين فى نفس السامع أو القارىء •

والحق الذى لا مراء فيه أن القرآن الكريم يحمل بين سوره وآياته الاجابة الحقة الكاملة على كل ما سأله ابليس وعلى كل ما وضعه أبالسة البشر من ملاحدة ومشككين وأعداء للايمان •

يقدم لنا كتاب الله عز وجل الحكمة التى من أجلها خلق الله عز وجل ابليس ، ثم الحكمة من تكليفه خصوصا بالسجود لآدم ، ثم الحكمة من خلق آدم وأبنائه ، والحكمة من تمكين

ابليس من الوسوسه له فى الجنة ، والحكمة من انظار ابليس الى يوم يبعثون ، ثم الحكمة من اعطاء ابليس وسائر الشياطين معه مكنة الوسوسة لادم وأبنائه والايعاز لهم بالشر • كذلك يقدم لنا كتاب الله عز وجل الحكمة التى من أجلها اذن الله عز وجل بوقوع الشر فى الحياة الدنيا •

ان القرآن الكريم يقدم للانسان الباحث عن الحق والحقيقة باخلاص ، الحكمة من كل ذلك مقنعة للعقل وموافقة للمنطق ومرضية للنفس ، فى بيان واضح منير يورث فى النفس الاطمئنان ، ويثبت فى القلب الايمان بالله عز وجل وبحكمته وعدالته المطلقة ، ومن ثم يغرس فيه نور اليقين •

ويكمن أساس التضليل فى شبهات ابليس السبع فى زعم كاذب ورد فى الشبهة الرابعة فى قوله لعنه الله (••• فاذا لم أسجد لآدم فلم لعننى وأخرجنى من الجنة ، وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحا الا قولى : لا أسجد الا لك) • ولسنا هنا فى مجال الرد على هذه الشبهات أو هذه الشبهة بالذات ، وذلك لان بيان الحكمة التى تدور الاسئلة السبعة حولها وكذلك الرد القرآنى على هذه الشبهات السبع ، مبسوط فى مواضعه من الجزء الاول من هذا الكتاب بفصوله التسعة ، ولكنا نورد

هنا الاقتصار على بيان هـذه الكذبة ـ باعتبارها مكمن وعـلة التضليل فى الشبهات جميعا ، وذلك بما ورد صريحا مباشرا فى كتاب الله عز وجل مكذبا لهذه المقولة • فابليس يرفض السجود لانه اختار ألا يسجد لغير الله ، وهو ـ أى ابليس ـ لم يذكر فى تعليل امتناعه عن السجود ، أنه بسبب اصراره على التوحيد، بل بين أن كبره واستعلاءه على آدم وحقده عليه هـو الذى جعله يرتكب المعصية • فعلة المعصية هى ذاته ، وليست شيئا خارجا عنها • وهذا ما سجله الله عز وجل عليه (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجـدوا الا ابليس أبى واسـتكبر وكان من الكافرين ـ ٣٤ البقرة) فالاباء والاستكبار هما سبب معصية ابليس وليس لانه قال « لا أسجد الا لك » ، والدليل على ذلك قوله عز وجل فى موضع آخر (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجـدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ـ الاعراف ١١ ـ ١٢) فالحكمة كل الحكمة فى سؤال الله عز وجل له « ما منعك ألا تسجـد اذ أمرتك » فلو كان المانع ـ كما يزعم هذا الزعم الكاذب ـ هـو معارضة الامر بالسجود لآدم مع التوحيد ، أو هو تعـارض التكليفين : الاول العام الذى أمر الله فيـه ابليس بالتوحيـد

وافراده بالعبادة مع سائر الملائكة ، والثانى الخاص بالسجود لآدم ، لذكر ابليس ذلك ، ولكنه لا يستطيع أن يخدع الله عز وجل أو أن يكذب عليه ، فقال الحق فى هذه القضية ، والعلة التى امتنع بها عن السجود وهى علة ذاتية ، من لدن نفسه المتعالية الرافضة للاقرار بالافضلية لآدم عليه السلام • وفى موضع آخر شهد ابليس على نفسه عندما سأله الله عز وجل (قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، أستكبرت أم كنت من العالمين • قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين — ص ٧٥—٧٦) •

كما أمر الله عز وجل للملائكة ولابليس بالسجود لآدم ليس متعارضا مع توحيدهم لله • لان هذا السجود بمثابة الاقرار لآدم بالخلافة والتفضيل والتكريم ، وليس هو سجود عبادة • ويتضح لنا ذلك من قول الله عز وجل « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » فبين الله عز وجل أن علة هذا السجود هو تكريم آدم وتفضيله بخلقه بيديه ، كما أن أمر الملائكة بالسجود لآدم جاء بعد أن أخبرهم الله عز وجل بأنه جعله خليفة (الايات من ٣٠ الى ٣٤ من سورة البقرة) فكان سجود الملائكة له بعد ذلك بمثابة الاقرار منهم والاعتراف بخلافته •

وعلى ذلك فقول واضعى الشبهات السبع أن ابليس رفض السجود لآدم ، لانه لم يرد أن يسجد لغير الله زور وبهتان من صنع شياطين الانس ، ولم يستطع ابليس نفسه أن يزعمه أو هو لم يحدث منه ، كما أخبرنا بذلك ربنا عز وجل فى كتابه العزيز •

ولكن هذه الكذبة أضحت فى مجال الفكر البشرى حجر الزاوية فى الضلالات والشبهات التى ينسجونها حول مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار • وذلك لانها تتضمن زعما خطيرا كان له أثر خطير فى التفكير البشرى حيال هذه المسألة وهو أن أبليس عندما أمر بالسجود لادم وضع بين امرين متعارضين ، ان أطاع الله فى أحدهما أصبح عاصيا له فى الاخر ، فاثر الا يسجد لآدم ابقاء على توحيده لله وهو يعلم ان مصيره النار • ومن ثم يبدو ابليس — حسب هذا الزعم الكاذب — فى موقف البطل المأساوى أو شهيد التوحيد المظلوم •

وبالمثل يحاول الكفار والفساق أن يصوروا أنفسهم فى مثل موقف ابليس المزعوم • فيزعمون أنهم حينما يعصون الله يكونون — حسب زعم الجبرية — خاضعين للامر الالهى والقدر

الالهى الذى لا يحدث شىء فى الكون الا بمقتضاه ، ومـــع ذلك فان هذا الأمر الكونى أو ما قدره الله عز وجل عليهم يتعـــارض مع الامر الشرعى المتمثل فى التكاليف الشرعية النازلة بالوحى • أى أنهم يزعمون أن الله عز وجل كلفهم بتكليفين متعـــارضين وأمر بأمرين متناقضين ، كما هو الحال بالنسبة لابليس • وفى هذا التعارض تكمن علة مأساة الانسان فى نظرهم •

لقد كان لهذا الزعم الكاذب تأثير كبير على الفكر البشرى فى شتى مناحيه ، وبخاصة فى مجالى الادب والفلسفة •

فبعد التوراة المحرفة التى بين أيدى اليهود من قبل نزول القرآن وحتى الآن ، وبعد الاناجيل المزيفة الموضوعة لم تقتصر اثارة مشكلة القدر على هذا النحو يصور فيه ابليس أو الكافر من بنى البشر بطلا لمأساة أو شهيدا لحق وواجب ، بل استمرت هذه الصورة الغنوصية الالحادية خلال فكر الالحاد والزندقة الذى تسرب فى ثنايا الفكر الاسلامى والحضارة الاســـلامية ، سواء فى مجال الفلسفة أو مجال الادب على حد سواء •

ولكن مهما قال القائلون • ومهما زيـــف المـــزيفون ، فان أقوالهم وتحريفاتهم وتلبيساتهم لا تتعدى هذه الشبهات السبع،

وان تناوبتها الصيغ المختلفة والصور المتباينة ، فالجور واحد والاغراض مختلفة باختلاف البيئة والثقافة والحضارة •

شبهات ابليس فى مجال الادب :

لقد سيطرت مسألة تعارض الامرين الصادرين الى الانسان على الادب التراجيدى الغربى خلال عصوره القديمة والوسطى • وتكمن المأساة الانسانية ، فى هذا الادب ، فى أن الانسان هالك أيا ما اختار أحد الامرين الصادرين اليه • ومعنى ذلك أن الادب الغربى — فى عصريه القديم والوسيط — غلبت عليه النظرة الجبرية بالنسبة لما يتعرض له الانسان من أحداث فى حياته ، فطبيعته تتجه الى أمور بينما تطلب منه أمور أخرى منافية لها تماما •

وقد تكون علة تعارض الامرين الصادرين الى الانسان أن أحدهما يتمثل فى حب البقاء والرغبة فى الحياة ، وما يتبع ذلك من حب المال والجاه والقوة وكراهية الموت ، وقد يتمثل كله أو بعضه عند هؤلاء الادباء فى السلطة الزمنية المتمثلة فى الحاكم • والاخر يتمثل فى الايمان بالخلود والرغبة الفطرية

الدفينة فى النفس البشرية لعمل الخير للفوز بالاخرة ، ويمثل ذلك كله عندهم السلطة الدينية •

وما يجعل من حياة الانسان مأساة هو اختياره وايثاره لاحدى السلطتين وتضحيته للاخرى ، بالرغم من كونه معاقبا ومعذبا على ذلك ، أى فى كلا الحالين • ومثال ذلك مسرحية « أنتيجونا » حيث وجدت أنتيجونا نفسها بين أمرين : اما أن توارى جثة أخيها القتيل التراب مذعنة لامر السماء القاضى بدفن الموتى ، واما أن تتركها للوحوش والنسور مذعنة لامر الملك كريون •

ومن ناحية أخرى ، فان الملك كريون نفسه عندما قتل أخاها وغيره كان بطلا مأساويا أيضا ، حيث وجد نفسه بين أمرين : العمل بالقوة والقسوة على اعادة النظام والامن وقمع الفتنة فى المدينة حسما للشر • وليس من سبيل الى ذلك الا باراقة الدماء •

وكذلك كان شقيق أنتيجونا هو الاخر بطلا مطحونا بين واجبين متعارضين •

ويتضح لنا التعارض بين الامرين اللذين واجهتهما أنتيجونا عندما يسألها الملك كريون :

ـ وكيف جرؤت على مخالفة الامر ؟

ـ ذلك لانه لم يصدر عن زيوس (هوكبير الالهة عند اليونانيين) • ولا عن العدل ، ولا عن غيرهما من الالهة الذين يشرعون للناس قوانينهم ، وما أرى أن أمورك قد بلغت من القوة بحيث تجعل القوانين التى تصدر عن رجل أحق بالطاعة والاذعان من القوانين التى تصدر عن الالهة الخالدة ، تلك القوانين التى لم تكتب والتى ليس الى محوها من سبيل[1] •

وهكذا انتهت أنتيجونا حين خيرت بين أمرين ، الى أن تختار الادوم والابقى ، وان كان هذا الاختيار ينتهى بها الى مأساة الانسان •

ولعله لا توجد مسرحية فى القديم والحديث تثبت جبرية محضة يرزح تحت ثقلها الانسان ، وتثبت مواجهة الارادة الانسانية للامرين المتعارضين ، مثل مسرحية أوديب • حتى

---

(١) د. طه حسين : من الادب التمثيلى اليونانى (سوفوكليس ص ١٥١) •

اضحى نص هذه المسرحية مجالا يستعرض فيه كبار الادباء عقيدتهم فى القضـــاء والقــدر • وذلك بادخال التغيــيرات والتحويرات فى الحوار والاحداث بما يؤدى الى اظهــار رأى الكاتب(٢) •

أما الكاتب اليونانى سوفكليس فيتصور القدر سيفــا صارما لا سبيل الى افلات رقبة الانسان منه • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان أحداث القدر الجبرية التى لا يمكــن الانسان أن يتحاشاها بأى حال من الاحــوال — وهى بمثابة الامر الكونى — تأتى متعارضة ومخالفة لامر الخير والواجب ومقتضيات الفطرة الانسانية السليمة ، وهى بمثابة الامــر الشرعى •

فالملك وزوجته جوكاستا يرزقان طفلا هو أوديب ، ولكن

---

(٢) مثال ذلك النص الخاص بالاستاذ توفيق الحــكيم حيث حاول أن يثبت فيه حرية الانسان واختياره ، ويحدد له دورا حيال دور القدر.وذلك بالرغم من أن النص اليونانى يثبتالجبرية المحضة

فالملك وزوجته جوكاستا يرزقان طفلا هو أوديب ولكن الكاهن ينبؤها بان هذا الطفل سيقتل أباه ويتزوج أمه • فيأمر الملك بارسال الطفل الى البرية لتأكله الوحوش او يموت جوعا وبرداولكن الخادم يشفق عليه ويتركه عند أحد الرعاة،فيترسى ويكبر • ويسمع بقصة وحش يهدد المدنية المجاورة ويحاصرها وقد صرع كل من تصدى له من الابطال ، فيخرج اليه أوديب ويتصدى له ، وينتصر عليه ويخلص المدنية من شره ، فيكتسب محبة وولاء اهل المدنية ، ومن ثم تنتهى الاحداث الى حدوث صراع بين أوديب وأنصاره وبين ملك المدينة فينتصر أوديب ، ويقتل الملك أى يقتل أباه • ويتولى الملك ويتزوج الملكة التى هى أمه • وهكذا تتحقق نبوءة الكاهن

وهذا يعنى أن الانسان مسير ومحجبر فى الامور والافعال الخلقية التى يحاسب عليها الانسان ويترتب عليها مصيره فى الحياة بعد الموت وأن علة مأساة الانسان المتمثلة فى أوديب هى مواجهة ارادته بأمرين متعارضين : الاول أمر الواجب والفطرةالمتمثل فى القيم الخلقية الواجب تحقيقها بالفضائل • والثانى هو القضاء النافذ الذى أجبر أوديب وجميع ابطال المسرحية عن طريق التسلسل الحتمى للاحداث على ارتكاب هذه الافعال •

لقد اختار سوفكليس اليونانى أبشع الجرائم التى يمكن أن ترتكب على ظهر الارض ، وهما قتل الوالد ونكاح الام ،

وحاول أن يشبت وقوعهما منه رغما عنـــه ، ليقول : ماذنب أوديب فيما فعل ؟ ألم يكن مكتوبا ، ومقدرا عليه من قبل؟ ومن ثم يعطى بذلك لمن يفعل أى جريمة المبرر الذى يتـــبرأ به من مسئوليته الخلقية •

لقد شنقت جوكاستا نفسها ، وفقأ أوديب عينيه ، وأخذ بناته من أمه يتجول بهن بين البلاد متسولا •

وهكذا أراد الكاتب ان يبرز مأساة المصير الانسانية من وجهة نظر ابليسية محضة ، وعلى أساس الشبهات السبع مبينا أن المعصية الكبرى التى يشقى بها الانسان الضال شقاء أبديا ، انما هى مقدرة عليه ، ولا يستطيع الافلات منها ، وليس بين هذا الزعم الباطل وبين زعم ابليس فى تبرير معصيته أدنى فرق يذكر •

ان مأساة الانسان المزعومة فى نظر هؤلاء الجبريين تقوم على نفس الكذبة التى قامت عليها مأساة ابليس المزعومة •

وتقـــوم مأساة أوديب على نفس الفـــكرة الخاطئة التى قامت عليها مأساة أنتيجونا ، حيث يجد أوديب نفسه أمام أحد أمرين ، كلاهما يحتم عليه مصيرا سيئا : الاول هـــو الواجب

الانسانى الخلقى الذى يدعوه الى تخليص المدينة من الوحش الذى يهدد حياة أهلها ، وهذا الامر فى حد ذاته خير يدعو اليه الضمير والواجب • والثانى هو رفض مصارعة الوحش وايثار السلامة ، وهو ما يتعارض مع فضيلتى الشجاعة والتضحية • ولكن عندما يختار أوديب ما يمليه عليه الواجب والفضيلة ، فان هذا الاختيار بعينه هو الذى يضعه فى مواجهة الصراع الدموى مع أبيه وهو الذى يغرس رأسه فى وحل الرذيلة ، حيث يؤدى الى قتل الاب والزواج من الام •

وكأن المسرحية — يشاركها فى ذلك كثير من مسرحيات وروايات التراجيديا الغربية قديما وحديثا — تريد أن تقول للانسان أنه عندما يبدو أمامك طريقان للاختيار ، فانك حينما تختار أحدهما ، فان أيا ما اخترت فانه يؤدى بك الى مأساة ، وأن ما يبدو لك اختيارا حرا ، انما هو جبر مقدر عليك •

أى أن مأساة الانسان تكمن فى أنه لا مفر من مواجهة المأساة فى حياته • وهذه الاخيرة هى التى يتعلق بها مصيره الابدى •

ولا شك أن لعقيدة الجبر أثر خطير على النظام الخلقى فى

الحياة الاجتماعية ، كما أنها لا تقل خطرا على الشعور والدوافع الخلقية عند الفرد • وذلك لانها فى نظر معتنقيها مبرر مقبول لارتكاب الشر وفعل الاثام •

فاعتقاد الانسان بأنه مسير يجعله قبل ارتكاب الشر والاثم فى حالة يأس تام من مقاومة الرغبة والدافع الى الرذيلة • فينتهى هذا الاعتقاد بالفرد الى التسليم بعجزه التام عن فعل الخير أو الامتناع عن الشر •

ومن ناحية أخرى ، تقضى عقيدة الجبر فى نفس صاحبها على كل نوازع الخير ودوافع الفضيلة ، وذلك بقضائها على النفس اللوامة التى من شأنها محاسبة صاحبها على فعل المحرمات وزجره عن معاودة ارتكاب الاثم وتحميله المسئولية الخلقية ودفعه الى التوبة والاستغفار والندم • كل ذلك بحجة أن ما حدث ليس سوى أمرا قد كتب ولا مناص من وقوعه •

ومن ثم يتبين لنا الى أى مدى يساهم الادب أو الفكر القائم على اعتناق الجبرية والمؤسس على شبهات ابليس فى هدم الفضيلة والخير كما حدث فى العالم الغربى القديم •

وامتدت عقيدة الجبر وتعليل الشرور بالقدر الى أعمال

كثيرة من الروائيين العرب المعاصرين • وأبرز مثال على ذلك هو انتاج الاستاذ نجيب محفوظ ، حيث نجد أن المحور الذى تدور حوله معظم رواياته هو أن معظم الشخصيات والابطال يدورون فى مدارات لا يملكون حيالها دفعا أو تغييرا أو تحويلا ، حتى فيما يقترفونه من أفعال خلقية •

ففى روايته « بداية ونهاية » — على سبيل المثال — تنتهى بطلة الرواية الى احتراف البغاء كنتيجة حتمية لمقدمات جبرية، وعندما يكتشف أمرها لاخيها الضابط لا تجد بدا من القاء نفسها فى نهر النيل على مرأى من عينيه ، ثم يتبعها هو الاخر بالانتحار قائلا « فليرحمنا الله » مشيرا بذلك الى أن كل ذلك كان قدرا عليهم جميعا • ذلك لان الاحداث تسير منذ البداية الى النهاية وليس لابطال روايته فيها أدنى تأثير يذكر •

ويضيق المجال هنا عن حصر الامثلة الكثيرة فى الادب الروائى المعاصر الذى اعتنق أصحابه الجبرية ، ودعوا اليها كأمثال الدكتور طه حسين فى « الايام » ويوسف السباعى فى كثير من رواياته وغيرهما •

ويصور هؤلاء الكتاب الوجود البشرى من خلال منظار أسود كمأساة تقوم على نفس الاساس الفكرى الخاطىء

الذى تقوم عليه المأساة عند أساتذتهم من أدباء الغرب وهو نفس الفريه التى أسس عليها واضعو التوراة والانجيل شبهات ابليس السبع • مما جعل من ابليس بطلا مأساويا مظلوما بسبب تعارض الامرين الالهين الصادرين اليه •

ويأبى الاستاذ توفيق الحكيم الا أن يشارك أهل التوراة والانجيل فى التتلمذ على شبهات ابليس ، حتى أنه بالرغم من أن كثيرا من رواياته الاولى — مثل قصه الخاص عن «أوديب» و « أهل الكهف » وغير ذلك من انتاج شبابه — تدل على اعتناقه لفكرة القدرية المقابلة للجبرية والتى تنسب للانسان قدرة خاصة على اكتساب أفعاله وتنكر جبرية القدر عليه وتجعل الانسان رب أفعاله صالحة وطالحة ، أقول ، بالرغم من ذلك ، فانه يتناقض مع نفسه ، ويعتنق الجبرية — ربما رغبة منه واصرارا على تمجيد ابليس ، وترديد ما ورد فى التوراة والاناجيل من محاور تدور حولها شبهاته السبع •

لقد حاول الاستاذ توفيق الحكيم فى قصة له بعنوان « الشهيد » أن يقول فيها أن العالم لا يمكن أن يقوم الا بابليس وأفعاله الشريرة وغوايته للناس • وأن الاله هو الذى خلقه • وكتب عليه هذه الحياة الشريرة ، ودفعه اليها ، وألزمه بها ،

لاستقامة أمر الكون على ما هو عليه الآن • لان العالم لا يمكن الا أن يكون كذلك •

ومن ثم ينتهى الاستاذ توفيق الحكيم الى تصوير ابليس فى صورة البطل الشهيد المظلوم فى دنياه وآخـرته • وينسب بذلك — على سبيل الاضمار والاخفاء — الظلم الى الاله عـز وجل • وذلك كنتيجة حتمية لتصور ابليس بهذه الصورة ، ثم الحكم عليه بالعذاب الابدى •

يقول الاستاذ توفيق أن ابليس أراد ذات يوم أن يتوب الى ربه ، وأن يقلع عن فعل الشرور ، وأن يتفرغ لفعل الخير والعبادة فذهب الى شيخ الازهر ليتوب على يديه ، فدار بينهما الحوار التالى :

— شيخ الازهر : ايمان الشيطان عمل طيب ولكن ••

— ابليس : ماذا : أليس من حق الناس أن يدخلوا فى دين الله أفواجا ؟ أليس من آيات الله فى كتابه الكريم « فسبح بحمد ربك واستغفر انه كان توابا » هأنذا أسبح بحمده واستغفره، وأريد أن أدخل فى دينه خالصا مخلصا ، وأن أسـلم ويحسن اسلامى ، وأكون نعم القدوة للمهتدين •

وتأمل شيخ الازهر العواقب لو أسلم الشيطان ، فكيف يتلى القرآن ؟ هل يمضى الناس فى قولهم « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ؟ ولو تقرر الغاء ذلك لاستتبع الامر الغاء أكثر آيات القرآن .. فان لعن الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لما يشغل من كتاب الله قدرا عظيما ... كيف يستطيع شيخ الازهر أن يقبل اسلام الشيطان دون أن يمس بذلك كيان الاسلام كله ؟.

رفع شيخ الازهر رأسه ونظر الى ابليس قائلا : انك جئتنى فى أمر لا قبل لى به ... هذا شىء فوق سلطتى . وأعلى من قدرتى ، ليس فى أيدى ما تطلب ... ولست الجهة التى تتجه اليها فى هذا الشأن .

ابليس : الى من أتجه اذن ؟ ألستم رؤساء الدين ؟ كيف أصل الى الله اذا ؟ أليس يفعل ذلك كل من أراد الدنو من الله ؟

أطرق شيخ الازهر لحظة ... وهرش لحيته ثم قال :

نية طيبة ولا ريب ... ولكن ... على الرغم من ذلك أصارحك أن اختصاصى هو اعلاء كلمة الاسلام ، والمحافظة على مجد الازهر ، وأنه ليس من اختصاصى أن أضع يدى فى يدى .

ويعنى هذا أن الاستاذ توفيق الحكيم يسجل على لسان شيخ الازهر ضرورة وجود ابليس لبقاء الدين واثبات صحته . وأن اختصاص شيخ الازهر وعلماء الدين وأهميتهم مستمد من وجود ابليس ، ولو زال ابليس من الارض لانتهى مبرر استمرار شيخ الازهر وعلماء الدين بل يقصد أن صحة مبادىء الدين تقوم على فرض واه هو استمرار ابليس فى الكفر وهو يقرر هذه المعانى صراحة حين يتساءل :

« كيف يمحى ابليس من الوجود دون أن تمحى كل تلك الصور والاساطيل والمعانى والمغازى التى تعمر قلوب المؤمنين وتفجر خيالهم ؟ ... ما معنى يوم الحساب » اذا محى الشر من الارض ؟ وهل يحاسب أتباع الشيطان الذين تبعوه قبل ايمانه أم تمحى سيئاتهم ما دامت توبة ابليس قد قبلت ؟ ..»

ولكن ابليس لم يستسلم لرفض شيخ الازهر توبته فصد الى السماء وطلب من جبريل (عليه السلام) التوسط عند ربه لقبول توبته فيقول له جبريل [1]:

---

(١) هذا حسب زعم الكاتب ، وان كنا نرى أن اعتبار جبريل متحدثا فى حوار قصصى خيالى نوع من الكذب على الله عز وجل لان جبريل أمين الوحى ورسول الله عز وجل الى الانبياء والمرسلين

— : نعم ، ولكن زوالك من الارض يزيل الاركان ويزلزل الجدران • ويضيع الملامح ويخلط القسمات ، ويمحو الالوان ويهدم السمات • فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة ••• ولا للحق بغير الباطل ••• ولا للطيب بغير الخبيث ••• ولا للابيض بغير الاسود ••• ولا للنور بغير الظلام ••• بل ولا للخير بغير الشر ••• بل ان الناس لا يرون نور الله الا من خلا ل ظلامك • وجودك ضرورى فى الارض ما بقيت الارض مهبطا لتلك الصفات العليا التى أسبغها الله على بنى الانسان ؟

— وجودى ضرورى لوجودالخير ذاته؟نفسى المعتمة يجب أن تظل كذلك لتعكس نور الله • سأرضى بنصيبى الممقوت من أجل بقاء الخير ومن أجل صفاء الله[1] •• ولكن •• هل تظل النقمة لاحقة بى • واللعنة لاصقة باسمى على الرغم مما يسكن قلبى من حسن النية ونبيل الطوية •••؟

— نعم يجب أن تظل ملعونا الى آخر الزمان ••• اذا

---

(١) هذا التعبير سيء جدا، ويتضمن الاساس الفكرى للشرك حيث أنه يثبت حاجة الاله الى غيره لبقاء صفائه ، ولو أن الحاجة التى يثبتها معرفية وليست وجودية الا أن التوحيد الاسلامى يقتضى استغناء الاله عن غيره وجوديا ومعرفيا .

زالت اللعنة عنك ، زال كل شيء ، وبكى ابليس وترك السماء مذعونا وهبط الارض مستسلما ، ولكن زغرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ، رددت صداها النجوم والاجرام فى عين الوقت ، كأنهـا اجتمعت كلها معهـا لتلفظ تلك الصرخـة الدامية[٢] : انى شهيد • انى شهيد ••

ولا شك أن توفيق الحكيم مدلس وضـال أو مضلل فيما يتصوره عن حقيقة ابليس وعلاقته بنظام العالم ، وهو بهـذا التضليل تلميذ مخلص لتوراة بنى اسرائيل فى هذه القضية •

ولسنا فى معرض الرد على هذه الافك الان فذلك مبسوط فى موضعه من الجزء الاول تحت عنوان « حقيقة الشيطان » • ولكن نكتفى بابراز الضلالات الاتية فى قصته :

الاولى : ان توفيق الحكيم يصور شيخ الازهر على غرار أحد الباباوات الكنسيين الذين يغفـرون ويتـوبون على من يريدون من الناس • وهو بذلك يجهل (ولعله يعلم ويتجاهل) أنه ليس فى الاسلام رجل دين ، وأن التوحيد الاسلامى يمنع

---

(٢) يحاول توفيق الحكيم بهذا التعبير القول بأن الكون يشهد مع ابليس بأنه مظلوم وشهيد وأن الاله ظالم كبرت كلمة تخرج من فيه أن يقول الا كذبا .

وجود وساطات بين العبد المبتلى وبين الله عز وجل • وأن من أصول التوحيد الاسلامى توجه الراغب فى التوبة الى خالقه مباشرة دون واسطة من أحد من الناس أو الانبياء ،أو الملائكة•

الثانية : أن المخلوق المبتلى انسا كان أو جنا • اذا أراد أن يتوب مخلصا صادقا ، فان الله عز وجل — كما وعد — يتوب عليه ويغفر له حتى لو جاءه يمثل ملء السماوات والارض ذنوبا • وأنه لا يستثنى من ذلك حتى شياطين الانس والجن •

الثالثة : أن ابليس لا يريد التوبة ، فان الباعث له على المعصية كان ذاتيا ، استكبارا وحقدا وحسدا من نفسه على آدم • وما زال باعثه النفسى من ذاته • ولما كان شرط قبول التوبة هو الاقلاع عن المعصية وابداء الندم وعقد العزم على تركها • فان توبة ابليس — اذا أراد التوبة — حسب أصول الاسلام • مقبولة بشرط اعلان ندمه على معصيته واستعداده للسجود لآدم • والذى يمكن استنباطه من الآيات التى تتناول معصية ابليس • أن الله عز وجل لم يطرده من رحمته • فور امتناعه عن السجود لآدم • بل سأله عن الذى منعه عن السجود • فأعطاه الفرصة للندم والتوبة والسجود • فكان رد ابليس وبيانه هو الاستكبار والاستعلاء على آدم عليه السلام•

وهذا الاستعلاء والاستكبار والحقد على آدم هـو الدافع له الى يوم الدين لفعل الشر • وللايعاز به بين الناس •

وبذلك قطع ابليس على نفسه خط الرجعة الى طاعـة الله عز وجل والتوبة اليه ، فأعلن اعلانا واضحا صريحا عزمه على المضى الى النهاية فى طريق المعصية ، بالرغم من علمه بمصيره المترتب على اختياره • لان حقده على آدم واستكباره النابع من ذاته مستمر ومتزايد • وهذا الحقد هـو الدافـع له الى محاولة الايقاع بآدم وأبنائه فى نفس المصير الذى هوى اليه•

ويعرض القرآن الكريم هذه الحقائق الثابتة فى أكثر من موضع يقول الله عز وجل : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم • ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين • قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين • قال أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين • قال فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ـ الايات من ١١ـ١٦ سورة الاعراف) •

ولا شك أن الذى يطلب من الله عز وجل أن ينظره ويمهله الى يوم يبعثون ، هو فى الحقيقة مصر على معصيته ، غير نادم

عليها مستمر فيهـا الى يوم يبعثون • يتأكد هـذا الاختيـار الابليسى من اعلانه وتأكيده العزم على محاولة اضلال الناس• وهذا يجعل توبة ابليس بالذات مسألة باطلة ، لان التوبة لابد أن تنبع من نفس العبد • واعلان ابليس وبيان عزمه يدل على استحالة حدوث هذه الرغبة فى نفسه الى يوم الدين ، لانه قد اختار المعصية اختيارا نهائيا لا رجعة فيه •

بل ان مصير ابليس قد تحـدد نهائيا بعلمه وبمـوافقته وقبوله لهذا المصير ورضائه به فهو قد قبل اللعنة الأبدية • ولم يبد لله عز وجل أى رغبة فى التخلص من هذا المصير ولم يطلب منه رحمته أو مغفرته ، ولم يبد ندمه ، وانما أصر على المعصية الموجبة لهذه اللعنة ـ يقول الله عز وجل :

(قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين • قال لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ـ ٣٢ـ٣٣ سورة الحجر) •

وهذا الرد من ابليس بيان منه على تصميمه على المعصية وعدم العودة الى الطاعة •

قال فأخرج منها فانك رجيم • وأن عليك اللعنة الى يوم الدين ـ ٣٤ـ٣٥ الحجر) •

وهنا علم ابليس يقينا بجزائه على كفره — وكان يتوقعه قبل اخبار الله عز وجل له — ولكنه — رغم ذلك — لم يبد الندم• ولم يتراجع ، فقبل بذلك أن يكون ملعونا الى يوم الدين مرتين: مرة عندما اختار المعصية وهو يعلم جزاءه عليها ، ومرة عندما سأله الله عز وجل عن المانع له عن السجود فأقر بأنه من ذاته وباختياره • استعلاءا واستكبارا على آدم • مبديا اصراره على المعصية • ومن ثم قبل ابليس بذلك أن يكون ملعونا الى يوم الدين وأن يخلد فى النار • ولكن كل ما طلبه من الله عز وجل هو الامهال الى يوم البعث •

(قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون • قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم « ٣٦—٣٨ سورة الحجر ») •

وهذا كله يعنى فى النهاية اصرار ابليس على الافساد والفسق والمعصية والكفر منذ رفضه للسجود وحتى البعث ، حتى أنه ليقسم بعزة الله عز وجل أنه سيعمل على غواية الناس • خلال مدة الامهال الى يوم البعث •

(قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك المخلصين — ٨٢—٨٣ سورة ص) •

كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن ابليس قد قطع على نفسه خط الرجعة الى الله عز وجل • وأنه آثر الحياة الدنيا واختارها مستغنيا عن الاخرة • فأعطاها الله عز وجل له بناء على اختياره • وعلى ذلك • فندم ابليس ورغبته فى التوبة فرية كبرى ، وفرض خيالى ، مخالف لما ورد على لسانه فى القرآن الكريم • ومن ثم فالفرض الخيالى الذى بنى عليه الاستاذ توفيق قصته باطل • ونقصد به رغبة ابليس فى التوبة ، وما بنى على باطل فهو باطل • ولكن هذا الكاتب يستخدم الادب والفن وما أتاه الله من خيال وقدرة على استخدام الحوار لتلبيس الحق بالباطل ، والوصول بالخداع الى نتيجة باطلة ، وهى : أن ابليس مظلوم وشهيد •

الرابعة : أنه لا يوجد نوع من المخلوقات العاقلة اسمه الشيطان وانما الانواع العاقلة ثلاثة : الانس والجن والملائكة، منها نوعان للابتلاء هما الانس والجن • والذين يفسقون عن طاعة الله ويكفرون به من هذين النوعين ، يصبح كل منهم شيطانا • وابليس أحد هؤلاء فان زال أو أسلم فثم ملايين غيره من الانس والجن أصبحوا بأفعالهم الاختيارية شياطين• فابليس لم يكن شيطانا قبل المعصية ، كذلك ليس هو الشيطان الوحيد •

كما أنه ليس للشيطان على الانسان سلطان فيما يفعل من شر ، سوى الايعاز به وتزيينه لفاعله فقط • فقول الاستاذ توفيق ان زوال ابليس يدمر نظام الكون باطل ، لان الانسان وحده قابل للشر حتى بدون وسوسة ابليس له • أفلا يرى الكاتب الكبير من حوله من شياطين الانس من بنى اسرائيل له• وقادة أمم الباطل وأئمة الكفر والدعاة الى الضلال من المفكرين والادباء والفنانين ، ما فاق دعوة ابليس وجنوده من الجن الى الشر بمراحل كبيرة •

ان وجود الشر والاشرار — نتيجة طبيعية لخلق الله عز وجل للانس والجن أحرارا مختارين • اذ يقتضى كونهم أحرارا اختيار البعض للخير واختيار البعض الاخر للشر ، فحرية المخلوق المبتلى هى علة الشر فى العالم ، وليس ابليس هو علة الشر ، الا بما يخص ذاته ومعصيته وأفعاله الخاصة ، بل ان ابليس وكل الشياطين وكل العصاة أصبحوا أشرارا لان الله خلقهم أحرارا فاختاروا الكفر والمعصية على الايمان والطاعة • وعلى ذلك فقول الأستاذ توفيق أن توبة ابليس تعنى انتهاء الشر من العالم قول باطل ومن قبيل الوهم والجهل بطبائع النـاس •

الخامسة : أن بعض الشياطين يتوبون الى الله عز وجل ،

ويسلمون له فيتوب الله عليهم ويقبل اسلامهم • من ذلك ما جاء في السنة الصحيحة عن اخبار رسول الله ﷺ لام المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، أن لكل انسان شيطان حتى رسول الله ﷺ كان له شيطان يحاول أن يوسوس له ، ولكن الله عز وجل أعانه عليه فأسلم • وهذا يفيد قابلية شياطين الجن والانس للتوبة ويفيد ، أيضا قبول الله عز وجل توبة التائب منهم • ومن ثم فابليس مخلد في النار لانه مصر على معصيته غير نادم ولا راغب في التوبة • وليس كما يزعم هذا الكاتب بأن هذا مقدر عليه وأنه بذلك مظلوم وشهيد ، مخالفا ومعارضا بهذا الزعم قول الله عز وجل في ابليس وتصوير القرآن الكريم له •

السادسة : ان هذه النظرة الجديدة التى ينظر بها الاستاذ توفيق الى ابليس ، أو بتعبير أدق — التى يدعونا اليها — تتضمن في طياتها بذور الثنوية القائلة بالهين : اله للخير والحق والنور ، واله للشر والباطل والظلمة ، ويمكن أن ندرك هذه البذور في محاولة الكاتب اثبات ضرورة وجود الشيطان لنظام العالم • والحديث عنه كأنه أحد أركان الوجود التى لا يمكن للكون أن يستمر بما هو عليه من نظام وقيم وموازين ، اذا زال ابليس أو الشيطان • وهذه الفكرة تعطى ابليس مشاركة للاله

فى نظام الكون • لانه يصبح ضرورة للكون ، كما أن الاله ضرورة للكون • وقد أتى الكاتب — كذبا وبهتانا مستترا ومتذرعا بالاسلوب القصصى — بهذا المعنى على لسان جبريل فى قوله :

— نعم ولكن زوالك من الارض يزيل الاركان ، ويزلزل الجدران ، ويضيع الملامح ويخلط القسمات ، ويمحو الالوان ويهدم السمات ، فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة ، ولا للابيض بغير الاسود ، ولا للنور بغير الظلام• • بل ولا للخير بغير الشر • • بل ان الناس لا يرون نور الله الا من خلال ظلامك • • وجودك ضرورى فى الارض ما بقيت الارض •

وليس هذا القول سوى الاساس الفلسفى لعقيدة الثنوية التى تقول باثنين من الالهة ، فقوله لا وجود للخير بغير الشر ، يسلب الاستقلال الوجودى عن الاله وكونه ضرورة لوجود كل شىء ، ويثبت أن غيره ضرورة لوجوده أو حتى ليصبح لوجوده معنى •

والتوحيد الاسلامى يثبت ان الله عز وجل ضرورة الخلق كله ، ولا ضرورة وجودية أو معرفية عليه من سواء فهو الموجود الازلى الذى لا يشاركه فى أزليته غيره • وهو كل شىء وهو فى غنى عن كل شىء ولا شىء فى غنى عنه •

كذلك الله فى عنى عن كل شىء معرفيا ، كما أنه فى عنى عن كل شىء وجوديا ، فهو معروف بذاته وصفاته • وهو فى غنى عن أن يعرفه غيره ، ولا يمكن لاى من مخلوقاته أن يعرف الله حق المعرفة او يقدره حق قدره • والله عز وجل مستغن بمعرفته لذاته عن معرفة سواه له • بينما كل ما سواه من المخلوقاتلا يستغنى فى وجوده وفى معرفته عن معرفة الله عز وجل باعتباره الاله الحق وخالق كل شذىء •

يقول الله عز وجل شاهدا لنفسه بانه لا اله الا هو وكفى به شهيدا • (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ١٨ آل عمران •)

وشهادة الله عز وجل بانه لا اله الا هو فى الازل قبل بدء الخلق كله ، تثبت استغناء الله عز وجل عن أى ضرورة وجودية من غيره ، كما تثبت فى نفس الوقت استغناء عن أى ضروة معرفية من غيره ، أى أنه عز وجل ليس فى حاجة لكى يعرفه أحد • وانما كل مخلوقاته فى حاجة اليه فى وجودها أى فى خروجها من اللاوجود الى الوجود ثم فى استمرار ذلك الوجود • كما أنها فى حاجة لكى يستمر وجودها أن تعرفه

وتسبحه وتقدسه • فالملائكة وأولو العلم عندما يشهدون أنه لا اله الا هو انما ذلك لخير وجودهم وليس تنفع الله هذه الشهادة بشيء • كما أن اجماع الانس والجن على انكار هذه الشهادة لا يضره فى شيء ولا يغير من الحقيقة الازلية الابدية المطلقة وهى أنه لا اله الا الله •

ولا شك أن ما أورده الاستاذ توفيق ناسبا اياه لجبريل عليه السلام يتعارض مع هذا الاساس من أسس التوحيد الاسلامى ، لانه يثبت ضرورة على الاله فى الوجود والمعرفة ، ويثبت لابليس ضرورة لمعرفة الخير والحق ، كما يثبت له ضرورة لوجود العالم على ما هو عليه • وهذه الضرورة التى يثبتها الاستاذ توفيق لابليس هى الاساس العقيدى لديانة الثنوية التى تقول بالهين اثنين • وهو يستدرج القارىء الى هذه النتيجة الوثنية من مقدمة باطلة ، ببراعة رجل الحوار الحاذق دون أن يشعر القارىء العادى بمواضع التلبيس والتضليل والخداع •

السابعة : ان توفيق الحكيم يرمى — من قصته — الى تغيير مشاعر الكراهية والعداء التى عند الناس نحو ابليس ،

ان وصفه لابليس بالشهادة يعنى أننا يجب أن نغير من موقف الانسان التقليدى نحوه بحيث نتحول من موقف العداء والحذر منه ، الى موقف الاجلال والتقدير ، والشعور بالشفقة والتعاطف معه .

وهذه النتيجة التى يرمى اليها هذا الكاتب رفض لقول الله عز وجل: (... ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا . انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) « آية ٦ سورة فاطر»

وقوله عز وجل :

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان . انه لكم عدو مبين — آية ١٦٨ — سورة البقرة) .

ولئن كانت قصة « الشهيد » للاستاذ توفيق ترمى الى ذلك بالاسلوب القصصى غير المباشر الصريح الذى يعمل على ترك هذه النتيجة كأثر فى نفس القارىء دون التصريح بها ، فان كاتبا آخر من تلاميذ ابليس فى الشبهات ، يدعو الى هذه النتيجة صراحة فى مقال له بعنوان « مأساة ابليس نظرة جديدة الى موضوع قديم »[1] يستخدم فيه أساليب الغش والخداع

---

(١) نشرته مجلة (حوار) العدد الثانى السنة الرابعة.كانون ثان ، شباط — يناير ، فبراير ١٩٦٦ . صدرت بقرار الحكومة اللبنانية الممنوح للدكتور جميل جبر بوصفه ممثل المنظمة العالمية لحرية الثقافة .

والتزوير التى يمكن أن يزاولها كاتب بالقلم •من ذلك استدلاله على ضلالاته بايراده أقوالا وعبارات مبتورة لبعض مشاهير علماء المسلمين المخلصين ء لى طريقة من يستدل بقول الله عز وجل (ولا تقربوا الصلاة) على نهى القرآن عن الصلاة • وهذا أسلوب للتحريف والتدليس معروف للجميع ، ولكن الكاتب يستخدمه معتمدا على عفوية القارىء العادى ، وعدم معرفته بخلفيات هذه العبارات التى يستخدمها •

وهذا الكاتب — ويدعى دكتور صادق جلال العظم[٢] لم يخرج فى مقاله عن شبهات ابليس ، وليس من اضافة تذكر سوى صياغتها فى أسلوب عصرى ، ومن ثم فمقاله فى الحقيقة « نظرة ابليسية قديمة الى موضوع قديم » وليس « نظرة حديثة الى موضوع قديم » كما أسماه ذلك أن مقاله — مع استخدامه لكل الشبهات بلا استثناء بصيغ مختلفة — يدور حول فكرة باطلة أتت فى الشبهة الرابعة فى قول ابليس « لا أسجد الا لك » صاغها الكاتب فى عنوان فرعى يقول اصرار على التوحيد فى أصفى معانيه) ومن ثم يبنى دعوته على أساس أن مأساة أبليس المزعومة تتضمن نوعى المأساة التى عرفها الانسان

---

(٢) يعمل استاذا للفلسفة فى الجامعة الامريكية ببيروت .

فى فكره وأدبه ، وهما مأساة الغربة ومأساة المصير ، وأساس المأساة المزعومة عنده هو تعارض الامرين الصادرين الى ابليس ويرى الدكتور العظم هذا أن ابليس اجتاز مأساة الغربة عندما انفرد وحده دون الملائكة باصراره على التوحيد • فأصبح غريبا بينهم[1] كما أنه اجتاز مأساة المصير بطرده من السماء وقضاء حياته ملعونا فى الارض •

ويرى الكاتب أن ظلما فادحا وقع على ابليس • وأن هذا الذى حدث له هو نتيجة ايقـاع الاله له بنصب فـخ نصبه له بمكره • وهو يفسر مكر الاله الذى وصف به نفسه فى القرآن الكريم بمعنى لا يليقبالالوهية حيث يفسره بمعنى الخـداع والمخاتلة والغش والكذب •

ثم بعد ذلك ينتهى بمقاله صراحة الى نفس النتيجة التى دعانا اليها توفيق الحـكيم ضمنا ، وهى أن ابليس مظـلوم وشهيد • وهو أحد أركان هـذا الكون ، ولا يمكن أن يستمـر العالم بما هو عليه من نظام • الا اذا استمر ابليس فى دوره كمصدر للشر • ومن ثم فهو بذلك منفذ لارادة الاله ، ولابد أن

---

(١) وفى هذا وصف منه للملائكة بالشرك حاشا لله .

يثيبه الاله فى النهـاية ثوابا حسنا على ما يقوم به باعتبار أن ما يقوم به ضرورى لبقاء العـالم على ما هو عليـه • ومن ثم يتوقع الكاتب أن مصير ابليس لابد أن يكون الجنة • ويفسر ما جاء فى القرآن الكريم عن وعيد الله عز وجل له بالخلود فى النار • بأنه من قبيل المكر الالهى (الذى يفهمه هذا الكاتب على أنه غش وكذب وخداع) • ومن ثم ينتهى فى استنباطه الى قوله (نستنتج اذن أن اللعنة التى نزلت بابليس لم تكن تعبيرا عن نهايته الحقيقية التى شاءها الله له ، وانما كانت مكرا الهيا غايته تنفيذ أحكام المشيئة فيه) وأن مصيره سيكون فى الجنة (اذ أن مكر الله يتطلب أن يعتقد ابليس اعتقادا جازما بأن خاتمته لن تكون الا خاتمة تعيسة وبائسة) وهذا وصف صريح من هـذا الكاتب للاله بالكذب والخداع وذلك لان القرآن الكريم ينص صراحة على خلود ابليس فى النار بحكمين • حكم عام فى قوله عز وجل (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا — ١٤٠ آل عمران) وقد حكم الله على ابليس بالكفر فى قوله تعالى (الا ابليس أبى واستكبر وكان من الـكافرين — ٣٤ سـورة البقرة) أما الحكم الخاص ففى قوله عز وجل (قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا — ٦٣ الاسراء)

ويؤكد الله عز وجل هذا الوعيد ويثبت هذا المصير لابليس بقوله عز وجل من قائل (.. قال فالحق والحق أقول لامـلأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ٨٤ــ٨٥ سورة ص) .

ومن ثم ينتهى مؤلف هذا المقال الى نفس النتيجة الضمنية التى رمى اليها توفيق الحكيم من قصة « الشهيد » حيث يصرح الاول بضرورة عمل الاتى خلقيا وتربويا بالنسبة لابليس .

أولا : يجب علينا ادخال تعديل جـذرى على نظـرتنا التقليدية الى ابليس ، واحـداث تغيير جـوهرى لتصـورنا لشخصيته ومكانته .

ثانيا : يجب أن نرد له اعتباره بصفته ملاكا يقوم بخدمة ربه بكل تفان واخلاص ، وينفذ أحكام مشيئته بكل دقة وعناية.

وأخيرا يجب أن نكف عن كيل السباب والشتائم له ، وأن نعفو عنه ونطلب له الصفح . ونوصى الناس به خيرا ، بعـد أن اعتبرناه زورا وبهتانا مسئولا عن جميع القبائح والنقائص) وذلك لان الكاتب يرى أن الاله هو المسئول عنها وليس ابليس باعتباره مكلفا له بها ومريدا لها .

والملاحظ أن الكاتب يتعامـل هنا مـع ابليس باعتباره

موجودا حقيقيا مظلوما فيطلب الصفح عنه ويحاول رد اعتباره ويدعونا الى تغيير نظرة الناس له ، وذلك بالرغم من تصريحه بأنه شخصية اسطورية وليس شخصية حقيقية • وهذا يعنى أنه تناقض مع نفسه •

وعلى كل حال ، فان هذا الكاتب يتفق مع الاستاذ توفيق الحكيم فى أصول نظرتهما لابليس • فأصول هذه النظرة ونتائجها عند الاثنين مستمدة من شبهات ابليس الواردة فى توراة اليهود •

وأخيرا ، فان ما نود قوله ، بناء على ذلك كله ، هو أن كثيرا من أدباء اللغة العربية المعاصرين يقومون بنشر وترويج ودس سموم توراة اليهود المحرفة ، ويثبتون بين المسلمين شبهات ابليس فى صور فكرية وأدبية وفنية وأن قضية الجبر والاختيار ومسألة القضاء والقدر كانت بالنسبة لهم ولغيرهم الميدان الخصيب لمحاربة الايمان الفطرى فى النفس البشرية والقضاء عليه •

ولكن ، مع ذلك كله ، فان شبهات ابليس التى وردت أول المقال ما زالت قائمة بلا رد وبلا تفنيد وبلا كشف لمواضع التلبيس والخداع فيها •

هذا حق ، ولا شك أن التفنيد وكشف الخداع والتلبيس أمر هام ؛ وبخاصة بعد عرض الشبهات ونشرها ، لذلك سيكون هذا هو موضوع حديثنا القادم باذن الله تعالى تحت عنـــوان كشف مواضع التلبيس فى شبهات ابليس •

www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

المقـــــال الثالث

كشف مواضع التلبيس فى

شبهات ابليس

يبقى بعـــد ذلك تفنيد شبهات ابليس وافتراءاته السبع واحدة واحدة :

تقول الفرية الاولى :

أنه قد علم قبل خلقى ، أى شىء يصدر عنى ويحصل منى فلم خلقنى أولا ؟ وما الحكمة فى خلقه اياى ؟ .

لقد شاء الله عز وجل — وهو فعال لمـــا يريد — أن يكون فى كونه العظيم وبين مخلوقاته التى لا يعلمها الا هو ، عالمـــا محدودا للابتلاء والاختبار هو الارض ، ينزل اليها من يقبـــل دخول عالم الابتلاء بشروطه ، وهى :

١ — أن يكون مزودا بمقومات الفاعلية الثـــلاثة : وهى الارادة المختارة والاستطاعة والعـــلم ، أى التى يصبح بهـــا الكائن المبتلى مسئولا عن أفعاله ، والتى تتم بها جميعا مسئوليته ويكون مستحقا للجزاء .

٢ — والشرط الثانى هو أن يتحمل مسئولية فعله فى الارض ، مصيرا مخلدا ، اما فى النار ، ان كان معصية لله وشرا واما فى الجنة ان كان طاعة لله وخيرا • قال تعالى (انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا — ٧٢ — الاحزاب) •

وهذا يعنى أن الانسان قد دخل عالم الابتلاء مخيرا ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى (انا عرضنا •••) ويؤكده أن التخيير كان لكل المخلوقات ، وأن البعض أبى حمل الامانة اشفاقا من نتيجتها على مصيرهم ، وأن الانسان حملها باندفاعه وتهوره وظلمه لنفسه •

وخلق الله عز وجل كل المخلوقات ، أحياء وغير أحياء ، على الفطرة الحنيفية الموحدة ، وعلى رأسهم جميعا الملائكة والجن والانس بما فى ذلك ابليس وأعتى كفار البشر •

ثم شاء الله عز وجل — وهو فعال لما يريد أن يكرم الانسان ويفضله على جميع خلقه فى الارض ، وأمر الملائكة الذين كان معهم ابليس ، وتلقى معهم الامر ، وأصله من الجن ،

أمرهم عز وجل بالسجود لآدم ، اقرارا له بالخلافة والافضلية والتكريم عليهم وعلى سائر العالمين فى الارض •

لقد كان هذا ابتلاء من الله عز وجل للجميع ، كانت نتيجته طاعة الملائكة ومعصية ابليس •

وهذا يعنى أن الملائكة رفضوا دخول عالم الابتلاء ، وأن ابليس اختار دخول هذا العالم ، وذلك حين تلقى أمر الله عز وجل بالسجود لآدم كأمر ابتلائى ، وليس كأمر كونى لله عز وجل واجب التنفيذ ، ومن ثم جعل لنفسه حق القبول والرفض بالنسبة لامر الله ، فكان هذا بمثابة انسلاخه من عالم الملائكة ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ودخوله عالم الابتلاء ، الذى يتمكن فيه الكائن المبتلى — بأمر الله وقدره واذنه — أن يطيع ، كما يتمكن فيه أن يعصى الامر الالهى الصادر اليه ، ابتلاء وتشريعا وتخييرا •

ومن ثم تعتبر معصية ابليس ، زيادة على ما تقدم ، تجربته الابتلائية الاولى •

بعد هذا البيان نقول ردا على سؤال ابليس الاول : أن الله عز وجل علم قبل أن يخلقك ويخلق أى كائن مبتلى من الجن أو الانس ماذا سيكون منه ، وماذا سيكون منك ، هذا بالنسبة

للكافر والمؤمن سواء بسواء ، ومع ذلك فقد خلقك الله وخلق كل كائن ، لان الله عز وجل غنى قادر كريم وخزائنه لا تنفذ ، وعندما خلق الله عز وجل الخلق ، فانه أعطاهم وامتن عليهم بوجودهم، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ولكن الله عز وجل الكريم الغنى القادر الفعال لما يريد ، أراد أن يعطى بعضا من خلقه ملكا عظيما خالدا يسخر لهم فيه الاشياء والاحياء ، ولان الله عز وجل حكيم وعادل ولا يظلم أحدا ، فقد شاء أن لا يأخذ هذا الملك الذى لا يبلى ، الا من يستحقه من خلقه ، ولذلك عرض عليهم جميعا (السموات والارض والجبال وما فيهن) الامانة وهى الموضوع الرئيسى للابتلاء فى الارض ، وقد قبلها الانسان وجعله الله خليفة ، فاذا بك أيها الشيطان تحقد عليه ، ومن ثم اتبعت هواك وانتقلت الى عالم الابتلاء .

فالحكمة من الابتلاء اذن ، هى اقامة الحجة على الكائن المبتلى ، وبيان أولياء الله وخلفاء الله من خلفاء وأولياء وعبدة الهوى والطاغوت ، ولكن يميز الله به من يستحق الملك الابدى الخالد فى الجنة ، من الذى لا يستحق الا النار التى جعلها الله لاعدائه .

وتمييز الخبيث من الطيب ، ليس لكى يعلم الله عز وجل

من الخبيث ومن الطيب ، فهو يعلم هذا كله أزلا قبل خلق الانس والجن ، ولكن لكى يميز بينهما أمام أنفسهما ، ولكى يقيم الحجة على الخبيث لان الله عز وجل ، كما أنه حكيم ، فهو عادل لا يظلم أحدا ، ولذلك شاء ايجاد عالم الابتلاء وعرض على مخلوقاته دخوله عرضا تخييريا ، ومن ثم أصبح عالم الابتلاء مجرد تجربة عملية ، تقوم بعدها الحجة على المسىء والكافر ، ليدخل النار بعد ذلك عن بينة ، وبرهان على استحقاق هذا المصير وعندما خلقك الله ، وخلق كل كافر صائر الى النار خلقكم على الفطرة موحدين ، ثم أنتم الذين أحدثتم فى أنفسكم هذا التسفل والهبوط بالكفر والمعصية ، ومن ثم يكون جزاؤكم النار جزاء عادلا موفورا .

وتقول الشبهة الثانية :

اذ خلقنى على مقتضى ارادته ومشيئته فلم كلفنى بمعرفته وطاعته ؟ وما الحكمة فى هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية ؟

ونقول للرد عليها :

كل الكائنات مكلفة بطاعة الله عز وجل ، والكل عبيد له تعالى ، والكل مسلمون لله تعالى ، ان طوعا وان كرها . قال

تعالى (وله أسلم من فى السماوات والارض طوعا وكرها — ٨٣ — آل عمران) وقال تعالى (ولله يسجد من فى السماوات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والاصال — ١٥ — الرعد) وقال تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين — ١١ — فصلت) .

فمن شأن الاله أن يأمر وأن يطاع وأن تنفذ مشيئته فى خلقه ، ومن شأن المخلوق أن يكون عبدا لخالقه ، ومن شأن العبد أن يطيع الهه والا أصبح كافرا متألها .

وقد كلفك الله عز وجل يا ابليس بطاعته ، وقد أطعته ، وأقررت له بالالوهية ، ووجوب الطاعة حتى أمرك بالسجود لآدم ، فاستكبرت .

أما أمر الله لعباده بالطاعة ، فيختلف من مخلوق الى مخلوق ، فالكائن غير المبتلى مطيع لله بمقتضى الخلقة ، ولا يمكنه أن يعصى أو يخطىء ، ولذلك قال الآ تعالى للسماوات والارض (ائتيا طوعا أو كرها) فليس لاى مخلوق فيهما أن يسير ، أو يؤثر فى غيره ، أو يتأثر بغيره ، الا كما شاء الله عز وجل وأراد .

أما أمر الله عز وجل بالطاعة بالنسبة للمخـــلوق المبتلى ، جنا كان أو انسانا ، فهو كقوله له ائت طوعا فقـــط أى بدون الحاق الامر بقوله « أو كرها » ، وهذا معناه أن هذا النوع من الخلق يستطيع طاعة الله عز وجل عليه تنفيذ أمره كرها ، فتركه واختياره ، ان شاء لبى أمر الله طوعا ، وان شاء لم يطع ، ولم يلب ، ولا اكراه عليه فى طاعة أو فى معصية •

ولا الطاعة تنفع الله ، ولا المعصية تضره ، ومن ثم ترك الله الكائن المبتلى ، ومنهم ابليس ، يفعل ما يختار •

فالحكمة من التكليف بالطاعة الاختيارية للكائن المبتلى ، هى ابتلاؤه واختباره لبيان مدى حبه لله وولائه وطاعة له ، ان اختار الايمان • ومدى عدائه ومحاربته لله عز وجـــل ، ان كان كافرا ، وذلك حتى يتحدد مصير كل منهم الابدى ، بنـــاء على أعماله وأفعاله الاختيارية فى الدنيا •

ومن ثم فعلم الله السابق بما سيكون من ابليس أو من أى كائن مبتلى ، يعلم الله عز وجل قبل خلقه أنه ســـيكفر ويظـــلم ويعصى ، لا يتعارض مع الحكمة التى من أجلها خلقه الله ، بـــل يتوافق معها •

ذلك أن الله عز وجل خلقه للابتلاء ، وعلم الله السابق بنتيجة الابتلاء لا يعنى أن الله عز وجل هو الذى أجبر ابليس والكفار والعصاة على أعمالهم ، لان العلم الالهى السابق بالحدث ، لا يعنى حدوث اكراه العبد الفاعل عليه ، حيث قد ثبت لنا أن أفعال العباد المحاسبين عليها ، تمت باختيارهم ، ولن يكون هناك ابتلاء صحيح ، ما لم يكن العبد مختارا فى فعله الابتلائى ، كما أن الله عز وجل قد حجب عن العباد علمه السابق بنتائج ابتلاءاتهم ، حتى يختاروا ما يريدون هم ، كذلك لم يكن ابليس على علم سابق بمعصيته قبل أمر الله ، وقبل اختياره المعصية .

ولذلك نقول له ردا على شبهته الباطلة .

لقد دخلت عالم الابتلاء بارادتك المختارة ، ولم يكن علم الله السابق بما ستفعل مجبرا لك على فعلك ، لجهلك به ، ولكونه كان غيبا بالنسبة لك ، أما خلق الله لك وهو يعلم ما سيكون منك فللابتلاء ، اذ أن أفعال الكائن المبتلى ، اما تكون خيرا وطاعة لله ، واما أن تكون شرا ومعصية له بالضرورة .

الشبهة الثالثة :

اذ خلقنى وكلفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة فعرفت

وأطعت ، فلم كلفنى بطاعة آدم والسجود له ؟ • وما الحكمة فى هذا التكليف على الخصوص ، بعد أن لا يزيد ذلك فى معرفتى وطاعتى اياه ؟

الرد على الشبهة :

ولبيان لغالطاته وتلبيسه فى هذه الشبهة نقول : لم يكلف الله عز وجل الملائكة ــ ومعهم ابليس ــ بطاعة آدم ، فلا طاعة لمخلوق وانما الطاعة لله وحده • وانمــا كان أمــر الله وتكليفه للملائكة ــ ومعهم ابليس ــ بالسجود لآدم ، وهذا السجود طاعة لله وليس طاعة لسواه ، لان الله عز وجل هو الذى أمــر بالسجود له ، ومعنى السجود هو الاقرار بخلافة آدم •

وهذا التكليف على الخصوص ، ابتلاء لابليس واختبار له ، من شأنه أن يظهر الكبر الدفين فى النفوس والحقد المخبأ فيها • وهذا ما كان منه فخسر فى هذا الابتلاء ، ورفض أن يكون من خلق الله عز وجل من هو أفضل منه ، والاستكبار هو استكبار على آدم ، ورفض وجحود لأمر الله ، وبالتالى يعتبر رفضــا لربوبية الله عليه ، وانسلاخا من العبودية لله تعالى •

أما قوله (أن امر الله له بالسجود لآدم لا يزيد فى معرفته

لله وطاعته له) فهو قول باطل ومخالف للحق والواقع ، لان هذا التكليف على الخصوص ، أو هذا الابتلاء هو الذى محص ما فى نفس ابليس وأظهرها ، وأقام عليه الحجة • فلو كانت طاعة ابليس السابقة على معصيته ، حبا لله عز وجل وحده ، لاطاعه فى هذا الامر ولقبل أفضليته آدم عليه راضيا ، كما أراد الله تعالى• ولكن لما كانت طاعته السابقة لله ارضاء لهوى وغرور فى نفسه ورياء وسمعة بين الملائكة ، والله عز وجل يعلم عنه ذلك ، فقد ابتلاه بهذا الابتلاء ، فظهرت حقيقة نفسه الخفية ، فلو أطاع وسجد لزادت معرفته بالله وطاعته له ، ولكان فى هذه الطاعة اتماما لعبوديته لله • اما وقد عصى ، فقد نسف عبوديته لله ، وأظهر أنه عبد لهواه ، وظهر ما فى نفسه ، وهذه هى الحكمة من الامر بالسجود لآدم •

وهذا ما نقوله لابليس ، كما نقول له : لو أطعت الله وسجدت لآدم ، لزادت معرفتك بالله ولكان السجود زيادة فى طاعتك له • أما الحكمة ، فهى اظهار ما فى نفسك من كراهية للحق ، وعداوة لله وايثار للهوى •

وهذا الابتلاء ليس لابليس وحده ، بل هو لكل كائن مبتلى يدعى الايمان بالله ، ويعلن ولاءه له • قال تعالى (ألم أحسب

الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ١ — ٣ — العنكبوت) فكل من يقول آمنت بالله وأقر له بالربوبية ووجوب الطاعة ، لابد أن يبتليه الله عز وجـــل بالسراء والضراء ، حتى يتجلى ما فى نفسه وحتى تظهر التجربة الابتلائية صحة ادعائه الايمان من عدمه ، وصدقه من كذبه •

وهذه السنة الالهية فى الابتلاء التمحيصى للمتلفظين بكلمة الايمان ، يجريها الله عز وجل على كل كائن مبتلى ، أى افراد الانس وافراد الجن الذين منهم ابليس ، وليست هذه السنة لابليس وحده ، ولذلك ابتلى الله ابليس بتفضيل آدم عليـــه ، تمحيصا واظهارا لمـــا فى نفسه •

الشبهة **الرابعة** :

اذ خلقنى وكلفنى على الاطلاق ، وكلفنى بهـــذا التكليف على الخصوص ، فاذا لم أسجد لآدم ، فلم لعننى وأخرجنى من الجنة ؟

وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحا الا قولى ، لا أسجد الا لك ؟ •

الرد على الشبهة :

الخاسر فى الابتلاء مطرود من رحمة الله محروم من الجنة ومعذب فى النار وهذا شرط معلوم للمبتلى مسبقا ومعلوم لابليس قبل ارتكابه لمعصية ، وقد خسر ابليس الابتلاء بالمعصية ، وبالجحود لامر الله وبالاصرار عليه • فليس له ولكل من يفعل مثله من الانس والجن الا الخلود فى النار • وليس له أن ينكر معرفته المسبقة بهذا الشرط قبل الابتلاء ، لان الله عز وجل أخبره وأمهله وهو مستطيع للتوبة لو أراد ، فاصراره على المعصية وجحوده لامر الله كفر مستمر منه ، بعد معرفته بمصيره الاليم فى النار •

والمعصية مع جحود أمر الله هى الكفر بعينه لانها رفض من العاصى لربوبية الله عز وجل ، وانسلاخ من العبودية له ، وهو أقبح القبائح ، ومصدر الشر فى الوجود ، لان معصية الله عز وجل ورفض التوبة هى الشر بعينه ، ولا معنى للشر سوى ذلك • فكيف لا يكون ما فعله ابليس فعلا قبيحا ؟•

والعبد المبتلى يحاسب على النية مع الفعل معا ، وليس على الفعل وحده ، بل تعتبر النية هى الاساس فى تحديد

المسئولية الخلقية والجزاء ، قال تعالى (وما لا أحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى ١٩—٢١ — الليل) وقال رسول الله ﷺ (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه يعمل العبـــدان عملا واحـــدا ، ولكن أحدهما يعمله ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة ، والثانى يعمله بغية الشهرة والرياء والسمعة والمغنم الدنيوى فقط ، فيكون الاول خيرا ، ويكون الثانى شرا ، لان العمل الانسانى كفاعله، له ظاهر وباطن • وباطنه النية والغاية التى يرمى اليها الفاعل• وكثيرا ما تتشابه الاعمال فى ظاهـرها ، وتختلف فى حقيقتهـا وباطنها وغاياتها ، ومرجع ذلك كله الى نية الفاعل وهدفه وغايته من الفعل •

وهذا ما يلبس به الفـاعلون الخبيثون والمنافقـــون على الناس ، فيوهمونهم بالامان والطاعة لله ، وهم لا يفعـــلون الا معصية لله سبحانه وتعالى • فالخير الذى لا يعنى شيئا سوى طاعة الله عز وجل ، هو العمل الذى يبتغى به الفاعل وجـــه الله ورضاه ، ويتحرى فى نفس الوقت مطابقة فعله لامر الله عز وجل وشرعه ، فاذا فقد الفعل أحد هذين الشرطين بسبب الغفـــلة

والجهل وغلبة الهوى ، لم يصبح الفعل طاعة لله تعالى ، وانما يدخل فى باب المعصية ، فاذا لم يكن بسبب الجهل والغفلة ، وكان بسبب غلبة الهوى ، مضافا الى هذا السبب اصرار الفاعل على اتباع الهوى ورفضه للتوبة وجحوده لامر الله وشرعه ، فهو الكفر اذن .

وتعتبر معصية ابليس من هذا النوع من الامثال التى يتشابه ظاهرها مع أفعال الطاعة ، مع أنها كفر ومعصية — فى حقيقتها — للاسباب الاتية :

١ — اباء ابليس السجود كان بنية الاستكبار والحقد على آدم ، قال تعالى (واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ٣٤ — البقرة) وكفر ابليس ليس بسبب المعصية فى حد ذاتها ، بدليل أن الله عز وجل لم يطرده من رحمته بمجرد رفضه للسجود ، وان كان هذا الرفض فعل حر لابليس واقع بفاعلية ويستحق عليه الجزاء ، ومع ذلك ، فان الله عز وجل سأله ، لاستخراج ما فى نفسه ، وليكون شاهدا عليها ، ولاعطائه الفرصة للندم والتوبة ، ومن ثم السجود لآدم اذا اختار هذا الطريق ، أو للاقرار والاعتراف بجحود أمر الله عز وجل ورفض ربوبيته والانسلاخ من عبوديته

له ، اذا اختار ذلك • وقد ظهر أنه اختار الطريق الثانى بمحض حريته واختياره ، قال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجـدوا لآدم فسجـدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ١١ــ١٣ ــ الاعراف) وسؤال الله عز وجل لابليس (ما منعك الا تسجد اذ أمرتك ؟) معناه (أى شىء منعك أن تدع السجود لآدم ؟)[١] أى ما الذى منعك من أن تكون مطيعا ملبيا للامر • والسؤال هنا عن الموانع أو العوامل الجبرية التى أجبرت ابليس على ترك السجود ، ان كان ثمة عوامل جبرية خارجة عن ذاته ؟ وبخاصـة فى اللحظة السابقة على الامر والمصاحبة للامر والغالبة له ، وهذا واضح من قوله تعالى (اذ أمرتك) فكان رد ابليس بأن العلة من ذاته، وليست مانعا خارجا عنها ، وبذلك نفى أى اكراه أو مانع خارجى شكل جبرا أو ضغطا على ارادته (قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) هذا هو رد ابليس عن الموانع التى منعته عن السجود ، وهى ذاتية •

وهذا الموقف المتمثل فى التكبر يمنع وجـوده فى الجنـة ، ويوجب طرده منها ــ كدار لرحمـة الله ونعمتـه ــ الى عالم

الابتلاء الذى دخله باصراره على الاختيار بين هواه وبين أمره، ثم هو أيضا قد طرد من رحمة الله ، واستحق النار باصراره على معصيته وجحود أمر الله عز وجل •

٢ — هذا الفعل من ابليس جاء مخالفا لامر الله عز وجل ، وأمر الله واضح معلوم له لا لبس فيه ولا ابهام ، والدليل على هذا سجود الملائكة ، وليس بين أمر الله بالسجود لآدم وبين أمر الله بالتوحيد أدنى تعارض ، بدليل سجود الملائكة • ومعنى هذا أن فعل ابليس معصية وكفر بمقتضى النية وبسبب مخالفته لامر الله عز وجل •

٣ — سجود الملائكة لآدم يعنى اقرارهم بخلافته وأفضليته ، كما يعنى استعدادهم للعمل لخير الانسان كأولياء له ، حسب أمر الله ومشيئته ، فالخضوع للمخلوق — اذا كان بأمر الله عز وجل — هو خضوع لله سبحانه ، وليس خضوعا للمخلوق •

من ذلك خضوع المؤمنين لاولى الامر منهم ، وطاعتهم لهم ، فى حدود شرع الله ، هو ليس خضوعا لاولى الامر ، لانهم عبيد مثل سائر المؤمنين ، ولكنه خضوع لله ، لانه طاعة لهم بأمر الله •

كذلك خضوع وسجود الملائكة لآدم ، هو طاعة لله عز وجل وليس لآدم ، لانه أمر الله ، ولان الملائكة — عندما سجدوا — لم يكن فى نيتهم سوى ابتغاء مرضاة ربهم .

أما قول ابليس أنه أبى السجود لآدم — بنية عدم السجود الا لله عز وجل — فهو فرية كبرى وكذبة مرفوضة ، باعتراف ابليس نفسه عندما سأله الله عن موانع السجود ، اظهارا لنيته الدفينة المستترة تحت عمل ظاهره يمكن أن يكون خيرا وتوحيدا ، فلم يستطع ابليس أن يكذب على الله عز وجل، الذى يعلم السر وأخفى ، فأقر بأنه لا مانع منعه من السجود ، ولا مانع منعه من عدم السجود ، أى أنه كان يستطيع السجود اذ أمره الله ، كما أنه استطاع عدم السجود اذ أمره ، فلم يكن ثمة مانع له من خارج ذاته يجبره على الفعل وضده ، ودليل هذا قول الله تعالى فى موضع (قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى — ٧٥ — ص) والسؤال هنا عن المانع من السجود ، وقال تعالى فى موضع آخر (قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك — ١٢ — الاعراف) والسؤال هنا عن المانع الذى جعله لا يسجد ، أى عن المانع الذى سبب عدم السجود .

وقد أقر ابليس بأنه لا مانع منعه من السجود ، ولا مانع

منعه من عدم السجود ، أى أنه كان يستطيع السجود وكان أيضا مستطيعا لعدم السجود ، ولم يكن ثمة مرجح عنده ، لعدم السجود على السجود ، سوى اختياره النابع من نفسه المتكبرة الحاقدة الجاحدة • ومعنى هذا أن نفسه كانت تخفى الكفر والغرور والكبر ، حتى وهو عابد مطيع مع الملائكة فلما ابتلاه الله ، لم يكن الابتلاء الا مظهرا لما فى نفسه ، وما تبريره للاستعلاء بخلقه من النار وخلق آدم من الطين ، الا قول باطل وتبرير مرفوض ، لان الملائكة الذين سجدوا لآدم طاعة لله مخلوقين من النور الذى هو أفضل من النار والطين ، ومن ثم نقول لابليس : أنت رفضت السجود استعلاء وكبرا ، ومجردا لامر ربك ، وليس لانك رفضت السجود لغير الله ، فالسجود لآدم طاعة لربك ، هو توحيد وعبادة لله ، وليس عبادة لآدم وليس شركا بالله • وجحودك أمر الله عز وجل ، هو رفض لربوبية الاله وألوهيته لك ، واتخاذك الها وربا سواه ، هو هواك وغرورك وكبرك • فأنت بذلك أشركت وكفرت بربك ، وليس لانك رفضت السجود لغيره •

الشبهة الخامسة :

اذ خلقنى وكلفنى مطلقا وخصوصا ، فلم أطع ، فلعننى

وطردنى ، فلم طـرقنى الى آدم ، حتى دخلت الجنة ثانيـا ، وغررته بوسوستى ، فأكل من الشجرة المنهى عنها • وأخرجه من الجنة معى ، وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو منعنى من دخول الجنة ، لاستراح منى آدم ، وبقى خالدا فيها ؟

الرد على الشبهة الخامسة :

السؤال هنا عن الحكمة التى من أجلها سمح الله لابليس بعد كفره وطرده من الجنة ومن رحمة الله عز وجل ، أن يوسوس لآدم وبنيه •

ولكى يتضح لنا الحكمة لابد لنا من الرجوع الى حقيقة الابتلاء ، الحكمة العليا التى من أجلها خلق الله الانس والجن فى الحياة الدنيا •

لقد طلب ابليس من الله بعد أن علم مصيره الاخـروى ، وأصر على معصيته ، أن يمهله الله عز وجل الى قيام الساعـة فلا ينزل به عقابه الابدى ، الا يوم البعث والجزاء ، قال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعـك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخـرج انـك من

الصاغرين قال أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين قال فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ... ١١—١٦— الاعراف) .

وقال تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغويتنى لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين — ٢٨— ٤٠ — الحجر) .

وقال تعالى (قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، استكبرت ، أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى الى يوم الدين قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك

لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال بالحق والحق أقول لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين — ٧٥—٨٥ سورة ص) .

ويمكن ادراك الحكمة من الامهال الى يوم البعث فى الآتى :

١ — لقد خلق الله عز وجل الدنيا للابتلاء ، وجعل الآخرة للجزاء ، ومن ثم أعطى الله عز وجل ابليس النظرة الى يوم البعث ، كما أنه عز وجل يؤخر حساب البشر الى يوم البعث أيضا .

٢ — مكن الله عز وجل ابليس من الدخول الى الجنة ، وطرقه الى آدم لتغريره بوسوسة لانه عز وجل عادل ، ومن العدل أن يبتلى آدم بابليس كما سبق وأن ابتلى ابليس بآدم، وهذه معاملة بالقسط ، لكن وسوسة ابليس وايعازه بالشر لآدم لم تشكل أى دافع لمعصية آدم ، فلم يكن لابليس على آدم أى دافع لمعصيته ، وانما اقتصر دوره على تزيين المعصية ، بالضبط كما زين تفضيل آدم على ابليس المعصية لابليس ، وبعثت فيه الغيرة والحقد والتعالى والاستكبار .

٣ ــ قول ابليس « لو منعنى من دخول الاجنة لاستراح منى آدم وبقى خالدا فيها » • قول باطل ، لان عــدم امهــال ابليس أو منعه من الوسوسة لآدم وأبنائه ، لم يكن ليمنع الشر من الحياة الدنيا ، ولم يكن هذا يمنع وجود شياطين توسوس فى صدور الناس • وذلك لان من لوازم الابتلاء الصحيح اختيار البعض الطاعة ، واختيار البعض المعصية ، كــذلك من لوازم ونتائج الابتلاء الضرورية اختيار الفرد الواحد الفعل الحسن مرة أو مرات ووقوعه فى اختيار القبيح مرة أو مرات •

وتعرض آدم للابتلاء فى الجنة ، بتحريم الاكل من شجرة بعينها ، يعنى تعرضه للخطأ والمعصية ، لان الله خلقــه حــرا مختارا ازاء الافعال الابتلائية ا وسواء وسوس له الشيطان أم لم يوسوس فانه معرض للمعصية ، ولذلك لا يتحمــل ابليس وزر آدم ، بل هو وزر من نفس آدم ، تحمله آدم ، واعترف به واستغفر ربه فغفر له ، كذلك لا يتحمــل الشــيطان وزر أى انسان ، لان السيئة من النفس والحسنة من الله عز وجل ، قال تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شــهيدا ــ ٧٩ ــ النســـاء) •

وقال تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا — ١٥ — الاسراء) •

وهذه سنة الله عز وجل فى الكائن المبتلى ، سواء بالنسبة لمصدر الشر والسيئة المنسوبة له ، أم بالنسبة لمحاسبة الله عز وجل له على السيئة الصادرة منه • فالسيئة من نفس الفاعل سواء كان انسا أم جنا وليس للشيطان — سواء كان انسا أم جنا — من دور فى فعل الفاعل يمكن أن ينسب اليه ، فهو مجرد داع للشر ، ومزين للمعصية فقط •

ونزول آدم وبنيه الى الارض يعنى تعرضهم للابتلاءات بالضرورة ، ومن ثم يستتبع هذا بالضرورة أيضا اختيار البعض الطاعة والبعض المعصية ، فمن يختار المعصية ، ويجحد أمر ربه ، ثم يتحول الى امام للشر وداع للكفر ، فانه يصبح شيطانا من شياطين الانس ، ان كان من الانس ، أو شيطانا من شياطين الجن أو من جنود ابليس ، ان كان من الجن •

واذن لو لم يكن ابليس هو الشيطان الاول فى الوجود ، لكان غيره ، ولو لم يكفر هو ويعص ويصبح أول داع للشر والكفر ، لكان غيره • ومن ثم لو لم يفعل ابليس ما فعله لما

استراح آدم وبنوه من دور دعاة الشر والموسوسين فى صدور الناس ، لان هؤلاء الموسوسين لابد أن يوجدوا من الكافرين والجاحدين من الجنة والناس ، علاوة على أنهم لا يجبرون أحدا على الكفر أو المعصية •

ومكمن التدليس فى الشبهة الخامسة هو فيما توحى به هذه الشبهة من أن الشر فى الحياة الدنيا بسبب ابليس بعينه • مما يترك فى ذهن السامع معنى باطلا مؤداه أن الله خلق ابليس ليكفر الناس ، فيورث هذا المعنى فى النفوس مظنة الجبرية ، لان هذا المعنى يستتبع القول بأن الله أراد منه أن يكفر الناس، ثم يحاسبهم ويحاسبه على الكفر بالخلود فى النار ، مع أنه كان من الممكن ألا يقع الكفر من أحد لو لم يسمح الله لابليس بالدور الذى يقوم به • وكل هذا باطل كما رأينا ، وهذا ما سيتضح لنا ويتأكد لنا أكثر من خلال الرد على الشبهة السادسة •

الشبهة السادسة تقول :

اذ خلقنى وكلفنى عموما وخصوصا ، ولعننى ، ثم طرقنى الى الجنة ، وكانت الخصومة بينى وبين آدم ، فلم سلطنى على أولاده ؟ حتى أراهم من حيث لا يروننى ،وتؤثر فيهم وسوستى ولا يؤثر فى حولهم وقوتهم وقدرتهم واستطاعتهم ؟

وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنها فيعيشون طاهرين سامعين مطيعين ، كان أحرى بهم وأليق ؟.

ما الحكمة ؟.

الرد على الشبهة السادسة :

تتعرض هذه الشبهة لتجربتين ابتلائيتين الاولى خاصة والثانية عامة .

أما الخاصة فهى التى ابتلى فيها آدم أبو البشر بابليس حين طرقه الله الى الجنة وسمح له بالوسوسة له ، وقد قلنا ان هذا من العدل الالهى وكان الرد عليها فى الرد على الشبهة السابقة .

أما التجربة الابتلائية العامة ، فهى موضوع هذه الشبهة وهى ابتلاء أبناء آدم بالشياطين ، وجنود ابليس وتمكينهم من الوسوسة لهم ، وهذه تجربة عامة لكل البشر ، بل هى للانس والجن ، فلو لم يمهل الله ابليس ويعطيه النظرة وامكانات ووسائل الوسوسة ، لما غير هذا من واقع الحياة الدنيا بالنسبة للانس والجن شيئا ، لانه كان لابد بالضرورة — كنتيجة حتمية للابتلاء — أن يظهر غيره ممن يختارون الكفر والدعوة

اليه ، ومن ثم يقومون بمهمة ابليس وجنـــوده ، وكان لابد أن ينتظموا كجماعة واحدة برئاسة واحد منهم ، كما هم منتظمون الان تحت رئاسة ابليس •

ومن ثم نقول : ان وجود شياطين فى الحياة الدنيا ، هو نتيجة للابتلاء ، ولازمة من لوازمـــه ، كما أنه مقـــدمة ضرورية لصحة الابتلاء أيضا •

فالابتلاء الصحيح لا يتم الا عندما يجـــد الانســـان أو الكائن المبتلى ارادته المختارة فى مواجهة فعلين : أحدهما طاعة لله والآخر معصية له بالضرورة • وكذلك يكون الـــكائن المبتلى تحت تأثيرين أو داعيين متساويين : أحدهما شيطان يوعز له بالشر والمعصية والاخر ملاك يوعز له بالخير • وكـــذلك تكون نفس الكائن المبتلى ذات نزعتين : نزعة للفجـــور والهـــوى ، ونزعة للخير ولتقوى الله عز وجل •

ولكن الشيطان ــ سواء كان من الانس أم من الجن ــ لم يخلقه الله شيطانا ، وانما خلقه الله موحدا على الفطرة كائنا مبتلى ، ثم هو الذى خسر فى الابتلاء واختار الكفر وأصر عليه وجحـــد أمر ربه •

فلو منع الله عز وجل ابليس بعينه من الدخول الى الجنة للوسوسة لآدم ، لما منع هذا اختيار بعض الانس والجن المعصية والاصرار عليها ، ومن ثم تحولهم الى شياطين يفعلون نفس أفعال ابليس وجنوده • لان عدم التجربة الابتلائية الخاصة لا يمنع التجربة الابتلائية العامة به هى جزء منها ، وخاصة لنفس الاسباب والنتائج والسنن • وخطيئة آدم لم تكن بتأثير ودفع وسلطان ابليس ، وان كانت بوسوسته ، لان آدم خطاء بطبيعته وان لم يخطىء فى الابتلاء الاول لاخطأ فى الثانى، وان لم يخطىء ابنه الاول لاخطأ الثانى ، وهكذا • ومعنى هذا أن خروجه من الجنة ، كان بسبب قابليته للخطأ وللابتلاء ، أكثر من كونه بسبب الاكل من الشجرة المحرمة • فالاكل من الشجرة أثبت رغبة آدم فى دخول عالم الابتلاء ، ولذلك لم يكن نزوله الارض جزاء وعقابا له على خطيئته ، لان الله عز وجل قد غفر له ، والله عز وجل لا يعاقب على ذنب غفره لفاعله ، وانما نزوله للارض كان بعد أن ثبتت صلاحيته للابتلاء ، ورغبته فى دخول هذا العالم ، مما استلزم نزوله الى الارض حيث هى العالم المعد لهذا الغرض •

وابليس يغالط ويكذب عندما يقول أنه يؤثر فى الناس

والناس لا يؤثرون فيه ، لانه ليس له على الناس سلطان من سوى دعوته اياهم الى الكفر بالله ، فاذا استجاب له الانسان وقع فى الكفر باختياره وفعله ، وليس بقهر أو غلبة أو اجبار ابليس له .

قال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمونى من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم — ٢٢ — ابراهيم) .

وكذلك يبين كذب ابليس فى ادعائه أن من جنوده من يتأثر بدعوة الحق التى يدعو اليها الرسل والمؤمنون ، فقد أسلم الشيطان الذى وكل برسول الله ﷺ .

وكذلك يسلم الكافر ويتوب المنافق ، وفى هذا دليل على تحرر الانسان مسلما وكافرا ومنافقا من سلطان ابليس وتأثيره، الا من أسلم ارادته له وأصبح من جنوده ، فان هذا يكون باختياره ، ومع ذلك فهو يستطيع — اذا أراد — أن يعود فى أى لحظة تائبا الى الله عز وجل ، وأن ينتقل متى شاء من حزب الشيطان الى حزب الله سبحانه وتعالى .

أما قوله (وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنها فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين كان أحرى بهم وأليق ، ما الحكمة ؟) •

وللرد على هذا نقول ان هذا هو حال الملائكة ، أما الانس والجن ، فقد خلقهم الله للابتلاء ، ومن ثم فان تحول بعضهم من التوحيد الفطرى الى الشرك ، ليس بسبب ابليس وجنوده ولكن بسبب الاختيار الحر للمتحول منهم عن الفطرة للكفر وللمعصية ولايثاره للحياة الدنيا وللهوى ، كما فعل ابليس تماما ، فتجربة كل كائن مبتلى مستقلة ، والفعل نابع من نفس الفاعل المبتلى ، ومقومات فاعليته الكاملة •

والمغالطة فى هذا القول تكمن فى ايهام ابليس أنه هو وجنوده السبب والعلة الوحيدة فى كفر الانسان ، والحقيقة غير ذلك ، فالعلة الحقيقية والوحيدة هى اختيار الكافر المعصية والاصرار عليها • وما دعوة ابليس الا عامل ثانوى — ليس لكفر الكافر وشرك المشرك — وانما لصحة اختيار الكائن المبتلى بين الكفر والايمان • والحكمة فى هذا كله والغاية منه هى تحقيق الابتلاء ، وتكوين حالة الاستواء اللازمة لتحقيقه ، ولقيام الاختيار الصحيح •

الشبهة السابعة :

سلمت هذا كله : خلقنى وكلفنى مطلقا ومقيدا ، واذ لم أطع لعننى وطردنى ، واذا أردت دخول الجنة مكننى وطرقنى، واذا عملت عملى أخرجنى ، ثم سلطنى على بنى آدم فلم اذا أستمهلته أمهلنى ؟ فقلت (أنظرنى الى يوم يبعثون ، قال انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم .) وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو أهلكنى فى الحال استراح آدم منى والخلق منى ، وما بقى شر فى العالم ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير ، خيرا من امتزاجه بالشر ؟.

الرد :

هذا اعتراف من ابليس بأن عدم سجوده لادم شر دخل العالم ، وهو مخالف لمـــا زعمه فى الشبهة الرابعة ، حيث قال : انه لم يفعل قبيحا .

ومع هذا فان بقاء ابليس وامهاله الى يوم الدين ـــ بناء على طلبه ـــ موافق لشرط الابتلاء ، وهو تأجيل الجزاء للمبتلى الى يوم القيامة ، واهلاكه فى الحال مخالف لهـــذا الشرط ، اذ أن الخاسر فى الابتلاء ، الجاحد لربوبية الله عز وجل ، جزاؤه

الخلود فى النار وليس الهلاك ، وبعد البعث ، وليس فى الدنيا •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فان هـلاك ابليس ليس معناه راحة آدم وبنيه من الشر ونقاء العالم منه • لماذا ؟• لان الانس والجن مخـلوقان للابتـلاء ، وهـذا يعنى أنهما يستطيعان فعـل الشر ، ومعصية الله عـز وجـل ، كما أنهما يستطيعان فعل الخير ، وهذا معناه أن النفس الابتـلائية هى مصدر الشر •

ولا شك أنه غرور من ابليس وكذب وافتراء منـه ، اذ يعتبر نفسه مصدرا للشر فى العالم ، انه مصدر لشر نفسه فقط، وكذلك اختيار كل انسان أو جان ، هو مصدر لشر نفسه ، لان الشر لا يتعدى نفس فاعله ، وليس فى الكون خالق الا الله عز وجل ، والله عز وجل منزه عن فعل الشرور والقبائح ، فالفعل القبيح منسوب لفاعله ، ولكنه مخلوق لله عز وجل ، فهو خالق كل شىء ، حتى أفعال العباد •

وليس فى العالم شر عام ، وانما هو جزء محدود من العالم جعله الله للابتلاء ، حدوده المكانية الارض ، وحدوده الزمانية الحياة الدنيا منذ آدم حتى قيام الساعة ، وقد أذن الله عز وجل للكائن المبتلى فيها بارتكاب المعاصى والشرور ، لكن هذه الشرور

ليست سوى نتائج تجاربهم الابتلائية بالنسبة للفاعل منهم من جهة ، وهي في نفس الوقت مقدمات لتجارب ابتلائية أخرى للواقع عليهم الفعل منهم من جهة أخرى • وهذا معنى قولنا ان الشر لا تتعدى حقيقته نفس فاعله ، أما عندما يقع على الغير ، فانه لا يكون شرا ، وانما يكون ابتلاء واختبارا •

مثال ذلك : أفعال فرعون لبنى اسرائيل ، هى شر كفعل منسوب لآل فرعون ، ولكنها — كفعل واقع على بنى اسرائيل ابتلاء مقدر من الله عز وجل عليهم ، قال تعالى (واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم — ٤٩ البقرة) • وهذا يدل على أن الفعل القبيح الواقع من آل فرعون هو شر بالنسبة لآل فرعون فقط • ولكنه — كفعل واقع على بنى اسرائيل — بلاء من الله عز وجل ، وليس بلاءا من آل فرعون ، والبلاء امتحان ، وليس شرا • وهذا هو موقف ابليس من وسوسته ، فوسوسته ومعاصيه شر بالنسبة لنفسه ، ولكنها ابتلاء مقدر من الله عز وجل على غيره •

وهذا يبطل كل شبهات ابليس بعامة والشبهة الاخيرة بخاصة •

فهـــــــرس

الموضوع	صفحة
مقدمـــة	٥
المقال الاول :	
الانسان خليفة بين بطانتين	٩
١ — غاية الانســان فى الحيــاة بين التوحيـد الاســلامى وعقائد الشرك والكفر والمــادية	
ما هى الخلافة ؟	٣٠
المقال الثانى :	
شبهات ابليس السبع فى الفكر والادب	٤٧
شبهات ابليس فى مجال الادب	٦٠
المقال الثالث :	
كشف مواضع التلبيس فى شبهات ابليس	٩٣

الانســـــان والشيطان

● زعم الملاحدة والكفار ان الانســـان يقف فى هـــذه الحياة على الارض وحده ، ضلوا واضاعوا . كيف يفسرون وجود الشر والظلم والعـــدوان اذن ؟. وكيف يعللون الافساد وسفك الدماء ؟.

● ان الانسان هو خليفة الله فى الارض يقف بين بطانتين : الاولى : بطانة خير وهم الملائكة .... والثانية : بطانة سوء وشر وفساد ، الشيطان وجنوده وذريته .

● فالشيطان عدو الانسان ، سواء كان من الانس ام من الجن ، لا يريد شقاء الانسان فى الحياة الدنيا فقط ، بل يرمى الى تخليده فى نار جهنم ليشـــاركه مصيره ، هو الصراع اذن بين الانسان والشيطان منذ آدم الى قيام الساعة .

● وهدف ابليس وجنوده من هذا الصراع مع بنى آدم ، هو تنحيتهم عن المكانة الوجودية العالية الرفيعة ، ألا وهى الخـــلافة لله فى الارض ، التى هى هدف المسلم فى الحياة .

د. فاروق أحمد دسوقى